عادل صوما

بنادق صغيرة

دار الفارابي

الكتاب: بنادق صغيرة

المؤلف: عادل صوما

لوحة الغلاف: هنري خوري

التصميم: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ص.ب: ١/٣١٨١ ت: ٣٠١٤٦١(٠١)

فاكس ٣٠٧٧٧٥(٠١)

الطبعة الأولى: ١٩٩٨

الرواية واللوحة

عندما سألت الفنان التشكيلي هنري خوري عن إمكانية تقديم لوحة لغلاف هذه الرواية، طلب مني أن أخبره ملخصها شفاهة، لأنه يقرأ أحياناً، ولا توحي الأحداث له بشيء يرسمه، إضافة إلى أجواء الحياة العامة، التي جرّدته من الصبر على القراءة.

فذكرتُ للفنان خوري أنها قصة حب ـ عكس ما يوحي العنوان ـ حدثت في الفترة التي كان فيها العماد ميشال عون رئيساً للوزراء، وقد تلازمت تفاصيلها مع ما جرى في هذه الحقبة على ساكني شرق بيروت.

وَشَمَ الحب والصداقة والرعب والسقوط والمعاناة والهجرة جسد الرواية، وأرّخت للفصلين الأخيرين من الحروب الداخلية التي حدثت على الأرض اللبنانية، والأحداث الاجتماعية والحياتية، بقدر ما يمكن لرواية أن تؤرّخ.

لم تمجّد أحداً، وكذلك لم تلعن. وقد يستهجن القرّاء بعض ما جاء في سياقها من ألفاظ، لكن تلك الأمور كانت

متداولة بشكل طبيعي أثناء الأحداث، ومن سِمة البشر النسيان.

وكانت هذه اللوحة التي أسماها الفنان خوري «التأمل الصامت». وصبغ فيها السماء باللون الفسفوري، الذي يقال إن جزيئياته تحوم في قبور المتوفين حديثاً. ووضع فيها جمجمة مستلقية بوضع نوم وكأنها تنتظر قيامتها، والمركب المتكسر والشمس المشقوقة إلى جزءين، وكذلك المرأة المستلقية تتأمل الأفق والمصير على شاطىء صخري قواقعة كبيرة شفافة.

عادل صوما

بنادق صغيرة

استيقظتْ تيرا ضو من نومها عند السادسة والنصف صباحاً على صوت المنبه، وهي تشعر ثقلاً في رأسها، من بعد ليلة لم يهدأ فيها القصف المدفعي من وإلى بيروت وضواحيها. ثم غادرت فراشها، وهي حريصة على ألاّ توقظ أختها النائمة إلى جانبها، وألقت نظرة إلى أبيها وأمها النائمين معهما في غرفة أسفل بنايتهم المكونة من طابق علوي وآخر أرضي لوقوف السيارات، فالنوم في الطوابق السفلى أصبح عادة شبه يومية، عند أهل بيروت، خصوصاً عند اشتداد القصف، تفادياً لقذيفة قد تقتحم المنزل أثناء النوم.

تناولتْ تيرا مفتاح الطابق العلوي، وصعدت لتهيئة نفسها للذهاب إلى العمل. وقفت أمام المرآة تتأمل الوجه المرهق الذي نال قسطاً من النوم لم يتعدَ الساعة والنصف، منذ توقف القصف المدفعي الليلي، حتى صرخ جرس المنبه.

لم تكن تيرا على شيء كبير من الجمال، لكنها فتاة جذّابة، تحمل قسمات وجهها مزيجاً من أنوثة تتمثل في بشرة حنطية ناعمة، وعينين عسليتين، وشعر كستنائي متموج ينسدل إلى

ما بعد كتفيها، ورجولة تتمثل في أنف مستقيم حاد، وذقن تدل على التصميم.

كان هذا المزيج المتناسق في ملامح وجهها الخارجية، يعلو جسداً قوي التركيب، ويخفي وراءه روحاً شفافة، وعذوبة طباع لم يلحظها الرجال من حولها، خصوصاً الذين حاولوا خطب ودّها، لأن صفاتها الداخلية كانت بحاجة إلى اكتشاف وصبر، والرجال قلّما يصبرون ويكتشفون.

ولعل الحياة في منطقة جل الديب، التي كانت حقول برتقال وموز متاخمة لشاطىء البحر وبضعة بيوت بسقوفها القرميدية، عندما ولدت تيرا في سنة ١٩٦٠، هي التي طبعت الشفافية في روحها، أما طباعها فكانت من صنع عقلها، ولم تتدخل العوامل الوراثية فيها.

تكيّف عقلها منذ مراهقتها، مع الأحداث والإشاعات والرعب التي ظهرت في المجتمع اللبناني، منذ بداية الحروب فيه عام ١٩٧٥، وأصبحت حسّاسة متوجسة تجاه ما هو خارج ذاتها وبيتها. لا تعرف اليأس أو الأمل، وتتعامل مع الأمور كما هي. تعلو وجهها أحياناً ابتسامة غامضة، طالما تساءل الناس من حولها عن سرها. كان سرها عميقاً، هو سخريتها من كل ما يحدث، وعبثية التناقضات التي لا يستوعبها معظم أهل البلد، الذين لم ينخرطوا في فصول الحرب المتلاحقة، وكانوا مشاهدين فقط.

كانت تيرا لم تزل في سيارتها، تنتظر انتهاء فترة تحميتها،

عندما بث الراديو بعد نشرة أخبار السابعة والربع، إعادة لحديث أعطاه العماد ميشال عون أثناء القصف الليلي، وحمل فيه بشدة على الوجود السوري في لبنان، لدرجة أن بعض المتأملين بهدوء جنون الأحداث التي اختلط فيها اللحم المتناثر بحيطان الملاجىء، وحطام بقايا السيارات بأسفلت الشوارع، وشظايا القنابل بواجهات المنازل، علّقوا على حديثه قائلين:

ـ الرجل يخوض حرباً إعلامية، لا حرب تحرير كما يزعم.

ـ وحداته العسكرية لا تتحرك مجرد بوصة.

ذهبت تيرا إلى عملها، يراودها شعور التوتر بانفجار الموقف عسكرياً، على الرغم من هدوء المدافع في ذلك الصباح. ووصلت إلى مقر عملها في منطقة سن الفيل، ووجدت حديث الرجال، كالمعتاد، يدور حول ما حدث ليلة أمس، والقتلى والمصابين الذين سقطوا. وكانت هذه الأحاديث بوجه عام، تزعجها وتجعلها تشعر بالملل، لأنها بطبيعتها تحب المرح والقوة في مواجهة الحياة.

كان دوام العمل في تلك الأيام، يبدأ عند الثامنة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً لسببين، أولهما انقطاع التيار الكهربائي بشكل شبه دائم عن بيروت، والاضطرار إلى تشغيل محركات صغيرة لتوليد الكهرباء، وهذه كانت بحاجة إلى وقود لم يكن متوافراً دائماً. أما الثاني فكان بداية القصف المدفعي التي كانت غالباً ما تكون بعد الثانية بعد الظهر،

وكأن المحاربين يعطون الحياة فرصة لكي تستمر ولا تتطور.

كانت الفترة ما بين الثانية بعد الظهر وحتى الخامسة فجراً، تمثّل الرعب والملل متجسدين. سكان بيروت لا همّ لهم سوى الاستماع إلى الراديو، محتمين في الطوابق السفلى، متنهدين، منتظرين حلاً نهائياً، لحرب التحرير التي أعلنها العماد عونِ ضد الوجود السوري في لبنان.

الفتيات يلعبن الورق ويتعلمن التبصير، والشبان يحصدون الملل، ويحصون القذائف المنهمرة على أحيائهم. الرجال يثرثرون، والسيدات مشغولات بإعداد الطعام في تلك الظروف الصعبة.

لم يكن يكسر حدّة الملل عند تيرا، سوى أحاديث هاتفية مع صديقتها منى، أو تبادل الزيارات، إذا لم تحمل فترة بعد الظهر انتكاسة أمنية. كانت منى الصديقة الوحيدة المقرّبة من تيرا، وكانت صداقتهما هذه قد توطدت على كراسي الدراسة في المرحلة الابتدائية، في مدرسة اللويزة في زوق مصبح، حيث منزل منى أيضاً. كانت الصفات المشتركة هي التي ربطت بين الصديقتين. وكانت تيرا تحب عفوية منى في كلامها، وضحكتها العالية المميزة.

إلاّ أن الفترة الأخيرة، وتحديداً منذ بدايات العام ١٩٨٩، حملت لتيرا سبباً آخر لكسر الملل، وهو تردد شاب، من وقت إلى آخر، إلى المؤسسة التي تعمل فيها، من أجل تصليح أجهزة الكومبيوتر المستخدمة في المؤسسة.

كان فادي أنطون يذهب إلى مؤسستهم، منذ أواخر سنة ١٩٨٨، بعد أن بدّلت المؤسسة، الشركة التي كانت تتولى صيانة وتصليح أجهزة الكمبيوتر، بالشركة التي يعمل فيها فادي. كان تصرفه تجاهها طبيعياً، لا ينبىء بأمر غير عادي أو بمودّة لها. وكان الانطباع الأول الذي لمع في ذهن تيرا عندما رأته أول مرة، هو انه رجل حزين! عكس كل العاملات في المؤسسة اللاتي رأين أنه جدّي.

كانت تتعمد أن تترك الغرفة، إذا كان يصلح جهازاً يخص عملها، لأنه رجل صامت، لا يبدو عليه معرفة أن الأنثى تفضّل من يتجاوب معها في الحديث، على من يتقن عمله فقط. كان معروفاً عنه في المؤسسة احترامه المواعيد، ولا يتحدث إلاّ في ما يخص عمله فقط. وحدث أنه كان يصلح جهازاً ذات مرة، بينما كانت تيرا وزميلة لها تتبادلان حديثاً حول قيمة الحب في الزواج. ومما قالته تيرا، وأثار شهيته للرد عليها:

- في ظروفنا هذه، على الفتاة أن تنتظر ولا تشغل قلبها، حتى يأتي الرجل المناسب مادياً، ثم تبدأ معه مشروع زواج.

- يبدو لي أن الأمر تجاري بعض الشيء، قال هو.

تعجبت الفتاتان من دخوله على خط المناقشة، وأثار ذلك فضولهما. وقد ردت عليه تيرا قائلة: «لا تسمّه كذلك، سمّه مشروع حياة».

ـ وهل تنجح حياة كهذه، تسير بشكل آلي، لا إحساس فيها؟ سألها هو

ـ نعم! تستمر، يكفي أن تستمر، وأنت تكسب خبزك من التعامل مع آلات.

ـ وما هو الفرق بين شراء كمبيوتر وشراء عروس؟

ارتسمت على زاوية فم تيرا ابتسامتها الغامضة، ولم تُجِبْ، بل نظرت إليه مباشرة، ونظر هو في عينيها بهدوء، وكأنه غير مقتنع بهذه الابتسامة وصمت صاحبتها. فقطعت زميلتها الصمت بالقول: العاطفة أيضاً مهمة، كما يلمّح فادي.

لاحظت تيرا بعد الحديث، أن نظرة فادي إليها بدأت تتبدّل، أحسّت وكأنه يريد أن يترك رسالة بنظرة عينيه هذه.

ـ يبدو أن زياراتك قد كثرت؟ سألته مرة.

ـ الحق على انقطاع التيار الكهربائي وتذبذبه، لأنه يسبب أعطالاً كثيرة.

ـ كانوا يتصلون بك أكثر من مرة لتأتي.

ـ ظروف صعبة.

ـ وهل تغيّرت الآن؟

ـ لا، أنا الذي تغيَّرتُ.

وفوجئت تيرا بفادي وهو يعطيها بطاقة قبل عيد الحب، مكتوب عليها:

«العزيزة تيرا

كل عيد للحب وقلبك بخير. تحياتي»

ضحكت وقالت له: ماذا تقصد؟ تعلم أن هذه البطاقة لا مكان لها عندي.

- اعتبريها سخرية من آرائك في الحب.

- أو شفقة عليّ. زادت هي.

ابتسم فادي، وحاول أن يتكلم، لكنها قاطعته قائلة:

- يبدو أنك تعرف كيف تبتسم.

- وقتي قصير في شركتكم. باختصار ووضوح، بدأ قلبي يتغير تجاهك.

- ماذا تقول؟!

- أصبحت انتظر الحضور، بعدما كان المكان لا يعني لي شيئاً.

- كيف حدث ذلك؟

- لا أعرف.

- أمر غريب فعلاً، لأنك لا تعني لي شيئاً.

- فكّري في ما قلته، ولا تتسرعي بالجواب.

فكرت تيرا في ما قاله، ولم تجد مفراً من رفع حواجبها وقلب شفتيها دهشة: يعرفني منذ شهور، فما الذي يقصده؟ وعلى الرغم من ذلك، لم تنفر أبداً من صراحته في التعبير بوضوح عما يحسّه. كان ذلك مناسباً لطبيعتها التي تميل للقوة والانطلاق. فهي كالقنّاص في حياتها وسلوكها، تنتظر وتستوعب وتحدد الهدف، ثم تطلق سهماً صائباً تجاهه.

لكن ما قاله بوجه عام، وجد نفوراً منها، لم تدرِ سببه. وانتظرت ما ستأتي به الأيام.

* * *

خَلَت بيروت في أيار ١٩٨٩ بعدما نزح سكانها نحو المناطق الأكثر أمناً، ولم يبقَ سوى الذين اضطرتهم ظروف عملهم إلى العيش فيها. حتى هؤلاء، كان معظمهم يقضي أيام الجمعة والسبت والأحد، عند ذويهم أو معارفهم بعيداً عن المدينة التي أصبحت مسكناً للأشباح، ولا يتحرك فيها إنسان بعد الظهر، إلاّ مضطراً.

كان المستمرون في العيش ببيروت، مشغولين بهمومهم الحياتية والوظيفية الصعبة. كانوا يضطرون للوقوف ساعات طويلة، في الصفوف البشرية التي تنتظر الحصول على مياه الشرب. وساعات أخرى للحصول على الوقود لسياراتهم ومولدات الكهرباء، الذي شح من الأسواق بسبب الحصار المدفعي البحري الذي فُرض على المنطقة الشرقية من بيروت.

اعتُبرت بعض الطرقات داخل المدينة خطوط نار، لأهميتها في عمليات الإمداد والتموين. كما عانت بعض المناطق البعيدة، التي لم تعرف الحرب طوال الأحداث، مرارة القصف المدفعي وخسائره الفادحة.

كان يصاحب رسوّ باخرة ليلاً في منطقتي جبيل أو عمشيت، وهما ضاحيتان تقعان شمال بيروت، قصف مدفعي هائل، يحاول منع رسو الباخرة قريباً من الشاطىء، ويحوّل

هذه المناطق الساحلية الجميلة إلى جحيم، تتراكض فيه الإطفائيات وعربات الإسعاف طوال الليل.

حديث الحرب رفيق الساهرين، والراديو لا يفارق آذانهم. بدت بيروت أحياناً من الجبال، كأنها لسان لهب بهيئة شبه جزيرة ممتدة في ظلمة البحر، تزيد ناره المدافع المزروعة في الجبال المحيطة به، وتقذف ما يكفي من الحمم لكي يرفع العماد عون صوته بقبول وقف إطلاق النار.

لكن العماد أطلّ على الناس بمؤتمر صحافي، قال فيه إن بيروت قد هُدِمت على مر التاريخ بضع مرات، إما بفعل الزلازل أو الحروب، ولا بأس لو هُدِمت مرة أخرى إذا قال أهلها: لا للاحتلال.

ارتفعت أيادي الناس المردومين بالنار بالتصفيق، وعلّق البعض: إلى أين سيوصلنا العماد؟ ولم تقف ميليشيا «القوات اللبنانية» المسيحية على الحياد، بل أعلنت أنها مع العماد عون.

منذ بطاقة «عيد الحب» حتى منتصف نيسان، طلب فادي من تيرا موعداً خارج المكتب، في كل مرة ذهب إلى المؤسسة. وكانت لا تجيبه سوى بابتسامتها الخالدة الغامضة على شفتيها. وذات مرة قالت له أثناء حديث هاتفي إن وقتها كله مشغول.

ـ هل هناك رجل في حياتك؟

ـ الأمر لا يعنيك.

لكن إجابتها لم تمنعها من التفكير جدياً، في ما وراء الإلحاح في طلبه.

كانت تيرا قد واجهت الفشل في حب منذ سنتين. وكان الفشل بسبب مواقف بينها وبين من أحبته، ترجمتها هي طعنة لكرامتها، وعدم مقدرة الآخر على تحمّل مسؤوليات المستقبل لو تزوجا. وجعلتها أسباب الفشل في حالة كره نفسانية للعاطفة، أوصلتها إلى النفور من الرجال. نفور أنثوي نظر إلى الرجال كحيوانات جنسية، لا تفهم قيمة المرأة، وتخشى أعباء الحياة معها.

حاول فادي قراءة ما في قلب تيرا، من حديثها إليه وما يتساقط منه من كلمات لها دلالتها. كان يشعر بنوع من الحنان تجاهها. ولم يدرِ سبب يقينه من عدم وجود شخص آخر في حياتها. وإنه هو الشخص المناسب لها، على الرغم مما تبديه من لامبالاة نحوه.

اتجهت أحاسيسه إليها، كما تتجه إبرة البوصلة نحو الشمال. وفتحت هي باب أمل بلقاء معها، واعتقد فادي أنه في بداية الطريق الصحيحة؛ لكنها سرعان ما ابتعدت بعد ذلك اللقاء، وتجاهلته تماماً، بعدما تبين لها أنه هو الوحيد القادر على إيقاظ قلبها من غفوته العنيدة المتعمدة. وفي الوقت نفسه، استشفت أنه رجل مجرد من صفات الرجولة التي تحلّى بها اللبنانيون بعد بداية الأحداث:

الكذب والنفاق والقسوة للحصول على مستلزمات المعيشة،

ومعرفة أكبر كمّ ممكن من المعلومات والإشاعات، لإثبات التفوق والادعاء بمعرفة الأمور التي تحدث حولهم.

بدا لها فادي وكأنه يعيش في عالم خاص به، بعيد كل البعد عن كل هذه الأمور، متخذاً العصامية طريقاً في الحياة، والصدق وسيلة للتفاهم.

- يعيش مثل هذا الإنسان، في هكذا بلد؟ سألت تيرا نفسها مرة.

وعلى الرغم من كراهيتها العميقة لصفات رجولة الحرب الأهلية، وجدت نفسها خائفة، من مواجهة هذا الرجل العاري، بين عالم مدجج بأقنعة مميتة، وهي التي لا تحب الشفقة أو الضعف. وكانت تجد نفسها أحياناً تخوض حواراً داخلياً:

- لماذا يريد أن يعذبني؟
- يعذبني؟ بل سيعذب نفسه.
- أريد الانتقام من الفشل الذي عانيته، ومن الظلم أن يقع انتقامي عليه.
- إنه جدير بالحب، لكن ليس حبي أنا.

لكن عنادها سرعان ما تبخّر، عندما انسحب هو أمام تجاهلها فجأة محتفظاً بكرامته. وما ضايقها أكثر، هو انسحابه الهادىء الحاسم.

- ليته فتح معركة معي.
- هو يشبهني في بعض الصفات، على كل حال.

لم تقدر على مواجهة ما فعله انسحابه المهذّب في قلبها من جيشان عميق. وجدت نفسها في شوق إلى تلهّف عينيه نحوها، وإلحاحه الفريد على خطب ودّها. وإذا بقوة تحركها نحوه في لحظة حنان، غدرت بقلبها المغلق، وجعلتها تطلبه على جهاز اللاسلكي ـ لتعطل خطوط الهاتف يومها ـ في شركته.

ـ فادي ليس موجوداً الآن.

ـ إذا جاء اليوم، قل له أن يتصل بتيرا ضو.

وبعد حوالى ساعتين كان فادي يحادثها على الجهاز.

ـ أخبروني أن أتصل بكِ. ما العطل الذي حدث عندكم؟

ـ صحيح، لا أعطال، بل أريد أن أراك اليوم لأمر هام.

ـ أين ومتى؟

ـ بعد دوام عملي، في المكان الذي تراه مناسباً.

ذهب فادي إلى مقهى قريب من مستديرة المكلّس كما اتفقا، وقبل الموعد بنصف ساعة، على الرغم من بدء التقاصف المدفعي بعد ظهر ذلك اليوم، وقلبه يحدثه بأنها لن تأتي. وفجأة سقطت قذيفة عيار ٢٤٠ملم في الجوار، هزت المنطقة بكاملها هزاً عنيفاً، وانتفض قلبه، وأسرع إلى باب المقهى ليرى ما حدث.

عاد إلى طاولته، وبدأ يحس بحركة اللعاب في فمه،

وتوهم للحظة أنها يمكن أن تموت إذا أتت.

كان يجلس في المقهى وحده، وصاحب المقهى يتسلى بقراءة جريدة، كان رجلاً مسناً، ولا يغلق مقهاه إلاّ عند الرابعة، عندما يأتي ابنه بسيارته ليأخذه إلى البيت.

نظر فادي إلى ساعته، وهو يهمس لنفسه: معها حق إذا لم تحضر. من الجنون التحرك تحت وطأة القذائف.

لكنها وصلت في الموعد تماماً، وكأنها روح مرّ بين القذائف التي تستهدف المنطقة. فقام من مجلسه، وكادت عيناه تغبّان جسدها، خوفاً عليها من القصف العشوائي، الذي كان الراديو يذيع أخباره وقت دخولها. ورفع صاحب المقهى عينيه من صفحات جريدته، وهو في غاية الدهشة من ضيفته التي أتت.

ـ هل يختار الإنسان مكاناً زجاجياً للقاءٍ تحت القصف؟!

ـ (مبتسماً) إنه أقرب مكان لعملك.

صافحته تيرا، ولمس في كفها هول السير بين الحياة والموت، في طرقات بيروت شبه الخالية، حيث يتجوّل العدم بين زواياها.

جلسا وتحادثا. هو مملوء بالفرح والريبة من تصرفاتها معه، لأنه لم يستطع إدراك تعامله مع جواد جامح، من الصعب وضعه داخل إطار معين. وهي منحنية تحت وطأة لحظة حنان تجاهه، لم تقدر على تجاوزها، ولم تشأ لها الدخول إلى حيّز شعورها.

كان حوارهما بعيداً عن أي غرام، وأقرب إلى محاولة التعارف عن قرب. وعلى الرغم من ذلك فقد نسيا خلاله أصوات القذائف، التي تدك ساحل كسروان شمال بيروت، وتُسمع أصداؤها بوضوح في أرجاء عاصمة العبث.

انتهى اللقاء بسرعة نظراً إلى الظروف غير العادية. وتمنى هو تكراره، وقالت هي:

ـ طريقي ليست واضحة، بعكسك أنت. ماذا ترى؟

ـ أرى إنك بحاجة إلى الثقة فيّ وفي الحياة.

نظرت تيرا إلى الشوارع الخالية تماماً، حتى من الكلاب والقطط الضالة، ثم عادت ونظرت في عينيه، وقالت بواقعية وبساطة:

ـ إنتبه إلى نفسك من القذائف! هيا بنا.

ـ وأنتِ أيضاً.

ـ تنصحني بأي طريق أسلكها.

ـ هل تعتمدين على الإحساس في هذه الحالات؟

ـ لغياب المنطق في الحياة.

ـ الطريق الفرعية، وليس الرئيسية.

أدار كل منهما محرك سيارته ورجع إلى بيته. هو مندهش ومكتئب. وهي معجبة بصبره عليها، والود الظاهر لها، وعلى وشك التسليم بمنح الحب فرصة.

***

كانت المرة الأولى التي يزور فيها فادي، منزل صديقه ريمون ديب في كفرشيما، الضاحية التي تقع جنوب بيروت، وتعتبر من خطوط التماس الساخنة في الحرب اللبنانية. وقد دخل ريمون إلى دائرة علاقات فادي منذ فترة قريبة، وتعتبر صداقتهما صافية، لا شأنها لها بعلاقات المنفعة أو زمالة العمل، لأن ريمون يعمل طبيباً.

ومن الصدف الغريبة، أن تكوّن بداية معرفتهما انطباعاً متوجساً لدى فادي، الذي رأى طبيب شركة التأمين الذي يفحصه، يماثله عمراً تقريباً. وكانت صراحته فجّة حين بادر طبيبه بالقول:

- صراحة، أخاف الأطباء الشبان!
- لماذا؟ سأله ريمون مبتسماً مستغرباً.
- خبرتهم قليلة.
- بالعكس، أصبح لنا خبرة محترمة بسبب الحالات اليومية المختلفة، التي تقذفها الحرب إلينا.
- معك حق. لقد نسيت ذلك.
- إضافة إلى أن الطبيب الشاب، أقرب إلى فهمك، يماشي العصر بالجديد الذي تعلّمه. بالمناسبة. ماذا تعمل؟
- باصلاح أجهزة الكمبيوتر.
- التي ستجعل نصف البشرية عاطلين عن العمل مستقبلاً؟!

ـ قه... قه... قه.. والخوف إذا دخلت غرف العمليات.

أحسّا من خلال حديثهما أن روح المودة تغلّف نفسيهما. وفي زيارة فادي الثانية إلى طبيبه، شعر كلاهما أن في الأفق صداقة تحلّق فوق رأسيهما، وقد بدأت فعلاً تنساب في كلامهما.

كان فادي وريمون يتحدثان في منزل الأخير وأصوات القصف تهدر بعيداً، في ذلك المساء في أواخر نيسان، والبلدة ـ كفرشيما ـ شبه خالية من أهلها، كذلك ما جاورها من ضيع كالحدث وبسابا ووادي شحرور، وكان الراديو بجوارهما يقطع بثّه المعتاد، كل فترة قصيرة بـ «فلاش أمني» إلى أن طال القصف المدفعي كفرشيما نفسها.

ـ يبدو أن ليلتنا عصيبة. قال فادي.

ـ شهدنا أزمات كثيرة، لكن هذه أقواها.

ودخل أبو ريمون إلى الغرفة، قادماً من المطبخ حاملاً صينية عليها ثلاثة فناجين قهوة. وسأل الشابين:

ـ هل سننزل إلى الملجأ؟

ـ إذا تطورت الأمور للأسوأ. رد ابنه.

ـ ومنذ متى لم تسوء؟ سأله أبوه.

ـ قد يتوقف القصف بعد قليل. قال فادي.

ـ هل تستطيع أن تخبرني، كم هدنة لوقف النار توصلوا

إليها منذ أربعة عشر عاماً إلى اليوم؟ سأله أبو ريمون.

ـ الوالد لم يترك كفرشيما أبداً.

ـ رأيت جنوداً من جنسيات كثيرة، وانتظر قدوم الروس.

ـ جاءوا لإيقاف الحرب. قال ريمون.

ـ ومن أجل القضية. ولم تنته الحرب، ولم أعرف ما هي القضية. زاد أبوه.

ـ خلاصة ما نراه، لا أحد متفقاً على ما هي القضية. قال فادي.

ـ يجب النزول إلى الأسفل يا أولاد. القذائف تسقط قريباً.

ـ لا أعرف ماذا أفعل؟ تساءل فادي.

ـ ستنام عندنا إذا لم يتوقف القصف. قال ريمون.

لم يهدأ القصف بل ازداد حدّة. وبدأ صوت مدفعية قريبة يهدر، ما يعني أن الردّ سيكون فوق رؤوسهم هذه المرة. لذلك اتجه الأب وابنه والصديق إلى غرفة تحت البناية، المؤلفة كمعظم بيوت الضيع اللبنانية من طابق واحد، تحته غرف للمونة وأشياء أخرى. وقد شيّد أبو ريمون حائطاً مزدوجاً لإحدى هذه الغرف، لتكون ملجأً أكثر أمناً، لمثل هكذا أيام عصيبة. ولاحظ فادي أن أبا ريمون لم ينس الصينية، عندما وصلوا إلى الغرفة.

وعندما أضاء أبو ريمون الغرفة، اكتشف فادي أنها مقسّمة إلى قسمين. إلى اليسار توجد فرشات للنوم موضوعة مباشرة على سجاد كبير، وإلى اليمين جلسة عربية لا كراسي فيها، بل مخدات كبيرة موضوعة على سجادة فخمة، وفي الوسط طاولة مستطيلة ترتفع عن الأرض قليلاً. وكانت الطاولة مزخرفة على الطريقة العربية.

ويبدو أن الإحساس بالدفء، هو الذي جعل فادي يقول بعد لحظات من جلوسهم، إن القصف قد توقف على ما يبدو.

- الحائط المزدوج هو الذي يعطيك هذا الإحساس، بعد قليل ستنتبه إلى تغيير صوت القذائف. شرح له ريمون.

- من المؤسف أن تكون زيارتك الأولى لنا، في هذه الأجواء السيئة، قال أبو ريمون لفادي.

- أنا سعيد بهذه الزيارة، مهما تكن الظروف.

- تحدث ريمون عنك كثيراً، قبل أن أراك.

- وهل وجدتني كما أخبرك؟ سأله فادي.

- تماماً. قال أبو ريمون.

- على فكرة، الوالد عمل بالتدريس قبل تقاعده.

- ماذا كنت تعلّم؟ سأله فادي.

- التاريخ، أجاب أبو ريمون.

ـ لكن والدي نديم، انتهى فيلسوفاً وليس مؤرخاً. قال ريمون.

ـ لا تصدقه. علّمت التاريخ في مدارس الشويفات.

ـ هذا صحيح، لكن عنده نظرة خاصة للوجود. قال ريمون.

ـ إنني مشتاق لسماع هذه الفلسفة.

ـ سأقول لك الموضوع باختصار: نحن البشر وكل الكائنات الحيّة ظواهر لمادة حياة لا نراها ونجهلها.

ـ إنني أعمل بالكمبيوتر، بسّط لي ما تقول.

ـ تخيّل أن مادة الحياة التي لم نرها ولا نعرفها، هي عريشة عنب. ونحن وكل الكائنات الحية هي مظاهر هذه العريشة.

ـ العنب والأوراق التي تتجدد سنوياً؟ تساءل فادي.

ـ عظيم، لقد فهمت ما أقصده يا فادي.

ـ وبحواسنا نرى الظواهر، ولا نرى الأصل. قال فادي.

ـ وما نراه يتغير. وما لا نراه هو الثابت والمنبع والأصل. زاد أبو ريمون.

ـ ولدى الوالد الكثير من الأفكار التي ستعرفها مستقبلاً. إنه قارىء ممتاز.

ـ كل أصدقاء ابني يصبحون أصدقائي أيضاً.

ـ أمر أكيد، لأنك إنسان رائع.

ـ هذا كثير. الشباب هو الأمر الرائع في الوجود.

بينما كان نديم وريمون وفادي يتحدثون في ملجأهم الآمن تحت البناية، كانوا يستمعون في الوقت نفسه إلى الأنباء، وكان القصف ـ حسب الأنباء ـ يطال تقريباً جميع الأماكن في بيروت. وقد خُيل إلى فادي أنه يسمع شخصاً في الخارج يغني، فنظر إلى أبي ريمون الذي ابتسم، وكأنه يوافقه على ما يسمع، وأنه حقيقة لا خيال. ونهض أبو ريمون ومشى تجاه باب الغرفة وفتحه، ودخل شاب طويل القامة، حنطي اللون، نحيف القد، تكاد عيناه أن تكونا ككرتين زجاجيتين أعلى أنفه المدبب، وتحت شعر كثيف أسود ناعم.

دخل داني عوّاد، وكأنه آتٍ من نزهة، أصوات العصافير هي التي تزقزق في الخارج. إحساس مريح ومزاج ثابت، وكان هو الذي يغني قبل دخوله وبصوت جهوري:

جيب المدفع بو انطون تانربي ياللي بيخون

ألقى داني التحية، وقبّل أبا ريمون، وخص فادي بالمصافحة. وبادره داني بالسؤال:

ـ من هو أبو انطون هذا؟

ـ ألم تسمع به من قبل؟! سأله داني وهو متعجب.

ـ فادي لم يكن من سكان بيروت، قبل سنة ٨٢. قال ريمون.

ـ قيل هذا الزجل، عند بداية الأحداث بين حزب

الكتائب والفلسطينيين. قال أبو ريمون.

ـ أبو ريمون هو ذاكرة الحرب. عقّب داني.

ـ ولماذا تردده في حرب العماد عون مع السوريين؟ سأله فادي.

ـ أسلّي نفسي فقط. مجرد تسلية. رد داني.

ـ لقد حارب داني فترة مع «القوات اللبنانية». قال ريمون لفادي.

ـ والتحقتُ فترة بالجيش... اللبناني. زاد داني.

ـ ولماذا هذا التضارب في المبادىء؟ سأله فادي.

ـ تضارب في ماذا؟ ومَنْ منا لم يصبه ما تقول؟

ساد الصمت بين الجالسين، لكن الأصوات المكتومة للقذائف المتساقطة في الخارج لم تسكت. وقطع أبو ريمون الصمت بقوله إنه صاعد لصنع ركوة قهوة أخرى. من أجل أن يشرب الجميع هذه المرة مع داني.

ـ لقد حدّثني ريمون عنك. قال داني لفادي.

ـ وسمعت عنك منه. هل ما زلت تتذكر هذا الزجل يا داني.

ـ لقد ضاع من الذاكرة الشعبية.

ـ هل ما زلت تذكره؟

ـ هل يهمك كثيراً؟

ـ إنه موضوع طريف.

ابتسم داني، وبدأ يقول بتفعيلة بسيطة، تناسب هكذا زجل

شعبي يقال أثناء الحرب:

جيب المدفع بو انطون تانربي يا اللي بيخون
تانخلي اللاجئ ... يبسلو ... لشمعون
جيب المدفع خلّي رجالك عا النبعة تلاقينا
تانخلي ... يبوّس صرامينا
قلّن لدوري وداني حققنا أمانينا
تانخلي الشعب اللبناني إنو يحلف فينا
إضرب مدفعية عابكرا وعشية
تانربي كل البيخون وجيب المدفع بو انطون

ابتسم فادي ابتسامة كبيرة، أظهرت أسنانه كلها، وسأل فادي: لماذا تحفظ قصيدة تمجد «حزب الوطنيين الأحرار» أيضاً؟

- أحفظ أموراً كثيرة أخرى، وهي ترهق ذاكرتي.
- هل هناك جديد عن طلب الهجرة يا داني؟ سأل أبو ريمون.
- أهلاً بصاحب الخدمة السريعة. قال داني رافعاً يديه ضاحكاً بوجه أبي ريمون الذي كان قد عاد لتوّه.
- هل من جديد؟
- كما ترى. أغنّي قهراً وأنا انتظر.

ـ لماذا تريد الهجرة يا داني؟ سأله فادي.

ـ لعبة الخراب هنا طالت. وأنا لن أحيا مائة عام لكي أعوّض ما فاتني.

فجأة سقطت قذيفة في مكان قريب، وسُمعت بوضوح داخل الغرفة المزدوجة الحيطان. فهرع أبو ريمون إلى الباب المطل على حديقته، وسمع الأصدقاء أصوات أحجار تتهاوى وزجاج يتكسر على الأرض. وأغلق أبو ريمون الباب بسرعة، وساد الترقب بين الجالسين، وتوجهت أنظار الشبان إلى أبي ريمون الذي اكفهر وجهه، وشملته مسحة من غضب.

ـ القادمة فوق رؤوسنا. قال أبو ريمون.

ـ أين الراديو؟ صرخ ريمون.

ـ إنه هنا. قال فادي.

ـ وماذا يقول؟

ـ القصف يطال جميع المناطق والخسائر فادحة.

ـ هس، اسمعوا. صرخ داني.

وأنصتوا إلى مذيع الراديو الذي كان يعلن أن العماد عون، قد طلب من «القوات اللبنانية» أن تسانده، وهي الآن ترد بقسوة.

ـ هذا يعني أنها تقصف أحياءً سكنية مكتظة بالسكان.

ـ وهل نحن زرائب حيوانات؟ إنهم يقصفوننا ونحن بشر.

استمرت الأمور على الوتيرة نفسها، إلى ما بعد منتصف الليل، عندما أعلن الراديو أن الاتصالات جارية لوقف إطلاق النار. وقرابة الثالثة فجراً، توقف القصف المدفعي، وساد الهدوء المشوب بالحرائق والخراب بيروت وضواحيها. وخرج القابعون في الملاجىء لتفقد بيوتهم وسياراتهم.

ـ أنقدنا الله هذه الليلة. قال أبو ريمون.

ـ فعلاً. لم نخسر ولا زجاج شباك واحد. زاد ابنه.

ـ ولم تؤذ السيارات أيضاً. قال فادي.

ـ هل أنت متأكد من هذه المعجزة؟ سأله ريمون.

ـ نعم، لقد فحصتها.

عاد الرجال الأربعة إلى داخل الغرفة، وطلب منهم أبو ريمون أن يناموا ولو ساعة، حتى يستطيعوا الانطلاق صباحاً. وغفا الجميع على الفرشات بشكل متقطع.

استيقظ فادي مع ظهور خيوط الفجر، ووجد نديم ديب جالساً في زاوية من زوايا الغرفة يحتسي القهوة ويدخن. ابتسما لبعضهما، وقال له فادي بتحريك شفتيه فقط: صباح الخير. وهزّ العجوز رأسه.

ثم اتجه فادي نحوه وهمس له إنه مضطر إلى الذهاب للاطمئنان على أمه، وودّعه وطلب منه أن يسلّم على ريمون و«جيب المدفع بو انطون». وانطلق بسيارته إلى منطقة عين الرمانة.

رائحة بارود القذائف، كانت لا تزال منتشرة على طول الطريق إلى بيته. ودخان بعض الحرائق، التي كانت مستمرة في الاشتعال، يزكم الأنوف.

بضعة نجوم كانت لا تزال في السماء، عندما ترك فادي كفرشيما، وألسنة اللهب المتراقصة في الطريق إلى بيته، تجعل القشعريرة تبرق في جسده، عندما يلمع بخياله أن بيته من الممكن أن يكون قد أصيب أو احترق.

ـ شعور فظيع أن ينام الإنسان على الرصيف،بعد نوم في فراش دافىء.

ـ ملعونة الحرب مهما كانت مبرراتها.

دمعت عينا فادي عندما وجد بنايتهم صامدة ولم يصبها سوء. ووجد امه لمّا تزل مستيقظة، تنتظره بقلق بالغ، ما بين غرف البيت كلها وشبابيكه وشرفاته.

ـ خفتُ عليك كثيراً.

قالتها المرأة المنتظرة بقلب أم لا تملك من الحياة، وربما الموت، غير هذا الابن.

ـ مكثتُ عند ريمون. لم أقدر أن أتحرك.

ـ خيراً فعلت، لأنك تتحرك كثيراً هذه الأيام، وأحياناً تحت القذائف.

ـ (بابتسامة جانبية) ظروف.

ـ نم قليلاً قبل الذهاب إلى العمل.

ـ إنني بحاجة فعلاً إلى النوم، ولو لساعة واحدة.

وكان أول ما فعله فادي، عندما وصل إلى عمله هو سماع صوت تيرا على جهاز اللاسلكي.

ـ(بحنان بالغ) هل أصيب منزلكم؟

ـ لا، وأنت؟

ـ لم يصب أيضاً. وسيارتكِ؟

ـ مجرد شظية صغيرة. وسيارتك؟

ـ لم تصب. بدأت أفهم ما سمعته من عشرين سنة.

ـ ماذا تعني؟

ـ إن الله خلق الكون بكلمة.

ـ وما معنى ما تقول؟

ـ معناه أن كلمة منكِ، تخلق حياتاً في كياني.

ـ ما هذا الإطراء الكبير؟

ـ ليس كثيراً على ملاك مثلك.

ـ بدأت تقول شعراً، بعد كفرٍ.

ـ وهل يزعجكِ ما أقوله؟

ـ يعجبني كثيراً. وأوقِفْ الحديث على الجهاز.

كفّ فادي عن الحديث. وبدأ بالتفكير في جدول عمله الذي ينتظره. وأحس فجأة أن الدنيا رائعة، على الرغم من الأهوال التي فيها.

***

على الرغم من أن تيرا قد بدأت علاقتها مع فادي، على أساس منح الحب فرصة، إلاّ أنها في قرارة نفسها كانت

تعتبره صديقاً مقرباً. أما هو فقد بدأ العلاقة على أساس أنه يحبها، وكان كل ما يفعله ويقوله يثبت ذلك، ما عدا أمراً واحداً لم تجد له تيرا أي جواب.

كان يحيّرها ـ كفتاة ـ عدم محاولته التقرب منها مطلقاً، لدرجة عدم لمس يدها. لم يقل لها كلمة «أحبك»، على الرغم من أن أفعاله كلها كانت تنم عن اهتمام ومودة وتعاطف عميق. كان خلال مقابلتهما طفلاً كبيراً، يضحك ويأكل ويتحدث بعفوية صادقة. طفل في التاسعة والعشرين من عمره، أصبحت تثق به وتستشيره وتأنس إلى مصاحبته والخروج معه.

ـ لا بد أنه خجول كونه وحيداً.

هكذا كانت تخاطب نفسها بعد كل لقاء معه، وما كانت لا تشعر به، هو مبادرتها هي بالاستفسار عن موعد اللقاء التالي، في معظم الأحيان.

تساؤل آخر كان يحيّرها، هو عدم تجاوبه في الحديث عندما تسأله عن ماضيه. وقد روى لها باقتضاب، كيف أن أباه قد توفي عندما كان طفلاً رضيعاً، بسبب تلوث جرح بعد عملية الزائدة. وكيف نشأ وحيداً. وتحصيل علمه تم بين ضيعته وبيروت، حيث تعلّم في المدرسة الألمانية في رأس بيروت، بعد المرحلة الابتدائية في بلدته.

ـ ولماذا تركت ضيعتك نهائياً سنة ١٩٨٢؟

ـ أنا اعتبر من سكان ما يُسمى الآن بالشريط

الحدودي، الذي تحتله إسرائيل.

ـ وما أهمية ذلك؟

ـ(بعيون قاتمة) أنت لا تفهمين السياسة. إذا بقينا نعتبر عملاء.

ـ مَنْ يقول ذلك؟

ـ (بحسم) موضوع معقد، لا تسألي عنه أبداً.

كانا يلتقيان في أماكن غريبة، تعتبر محايدة عن القصف، مثل مقاهي المستشفيات، وعلى شاطىء البحر، وعند التقاء نهر الكلب بالبحر. في هذا المكان الجميل الغني بذكريات التاريخ اللبناني، طالما تلاقيا وسارا بمحاذاة النهر الضحل السريع الجريان.

نسمات الهواء في هذا الوادي الصخري العميق، بين الصخور الشاهقة ونباتات البحر المتوسط، القريب من منزلها، تداعب شعر تيرا بعد ظهر يوم من أيام في بدايات فصل الصيف، وكانت كل حركة من حركات شعرها تهزم فادي، وتخدّر شبكة أعصابه.

ـ كيف يسير عملك هذه الأيام؟ سألته تيرا.

ـ بشكل جيد.

ـ سمعتُ من مؤسسة تعمل في تخصصنا نفسه، لكن في غرب بيروت، أنكَ تذهب إليهم.

ـ إنني أتحرك في كل مكان من بيروت.

ـ كيف لا تخشى الذهاب هناك؟

ـ وما الفرق بين هنا وهناك. في المكانين يمكن أن يخطف الإنسان ويُقتل.

ـ أقصد أن هنا. . .

ـ (مقاطعاً) يعيش المسيحيون.

ـ صحيح.

ـ هراء. المشاكل في المكانين متشابهة. على فكرة، كيف عرفتِ إنني أذهب إلى هناك.

ـ لنا علاقات عمل معهم.

ـ ألم أقل لكِ. المشاكل نفسها، وعلاقات العمل لا يمكن أن توقفها حواجز. دعينا نتكلم في الأهم.

ـ وما هو؟

ـ إنني لم أرك جميلة مثل اليوم.

ـ ما الذي تغيّر فيّ اليوم، لتقول ذلك.

ـ ربما حضورك الذي أصبح ضرورياً في حياتي.

ـ هل أنت مرتاح فعلاً في علاقتنا؟

ـ حتى الآن، أنا راضٍ ومرتاح لوجودك.

ـ هل تعلم أنني أصبحت انزعج إذا لم نلتقِ لمدة يومين أو ثلاثة؟

ـ هل أول. .

جفل فادي فجأة وهو يتحدث مع تيرا، وشرد ببصره إلى شيء خلفها، والتفتت هي بدورها لترى ما الشيء الذي أزعجه إلى هذا الحد، ورأت راجمة صواريخ تتجه من الشرق

إلى مشهد غروب الشمس وعادت لترى فادي ينظر إلى الراجمة نظرة، لم تدرِ هي لماذا حُفرت في قلبها. وقبل أن تتكلم شدّها فادي مسرعاً إلى سيارته، واستمعا إلى أنباء غير جيدة.

ـ هل لديكِ صديقة قريبة من هنا؟ سألها فادي.

ـ أقرب من منزلنا؟

ـ نعم، منى، في زوق مصبح.

ـ إذهبي إليها الآن، حتى هدوء الحالة الأمنية.

ـ وماذا عنك؟

ـ سأعود إلى منزلي.

ـ هذا جنون، لن أدعك تفعل ذلك.

ـ إسمعي كلمتي، وانطلقي بسيارتك فوراً.

سار معها نحو سيارتها، متجهم الملامح، وهي بحالة تشبه التنويم المغنطيسي. وأمام باب سيارتها، أمسك يديها بقوة وتمنى عليها أن تقود بهدوء وعدم انفعال. وخُيل لها أنه يقبّلها في شفتيها. ولم تدرِ لماذا انسابت الدموع من عينيها، وهي تتجه إلى بيت صديقتها منى «بهدوء وعدم انفعال».

وصلت تيرا إلى منزل صديقتها منى في زوق مصبح، وصوت دقات قلبها يسبق خطواتها. مسحت دموعها قبل أن تدق جرس الباب، وفتحت أم منى واندهشت لرؤيتها، بسبب الأخبار الأمنية غير الجيدة التي تتوالى عبر الراديو.

ـ أهلاً يا ابنتي، هل أنتِ آتية من منزلكم؟

ـ كلا، كنت في زيارة في الجوار، وسمعت الراديو يتحدث عن قصف الطريق الساحلية.

ـ حسناً فعلتِ.

اتجهت تيرا مع أم منى إلى غرفة الصالون، على وقع أصوات الترحيب من منى. وأول ما فعلته تيرا هو الاتصال بأهلها، لتطمئنهم وتعلمُهم بمكان وجودها. وبعد ذلك تفرغت للحديث مع صديقتها وقلبها ـ هذه المرة ـ مشغول على فادي.

اقتربت منى من عينيّ تيرا، وتصنّعت العبوس ثم قالت:

ـ كأنكِ كنت تبكين.

ـ من المفاجأة.

ـ ليست المرة الأولى التي تفاجئين فيها بالقصف وأنت على الطريق.

ـ ولن تكون الأخيرة. (ثم وهي مبتسمة) معك حق.

ـ إضحكي ولا يهمك. الجنرال رجل منتصر.

ـ أنت تعلمين أنني لا أبالي بما يحدث.

ـ إلاّ هذا البطل. إنه رجلنا المنتظر.

تتميز منى منذ أن كانت تلميذة في الصفوف الابتدائية، بحيوية فائقة ووجه جميل ناعم وقامة قصيرة. تتكلم بكل أعضائها تقريباً، وتسمع بأذنيها وعينيها، فهي لا تبعد نظرها عن وجه محدثها وهو يتكلم.

وفي الفترة الأخيرة، أُعجبت بالعماد عون، وأخذت تبشّر

بين من تعرفهم بأنه مخلّص لبنان. ولم يكن إعجابها مجرد علاقة من خلال وسائل الإعلام، أو مجرد ثرثرة صالونات، إنما كان علاقة ملموسة تمثلت في ذهابها إلى القصر الرئاسي، وتقديم المساعدات في أي مكان يمكنها المساعدة فيه، ضمن مجموعة من الشبيبة نذرت نفسها لذلك الأمر. وكان العماد نفسه ـ حسب ما قالت منى ـ يعرفهم ويأنس بوجودهم.

وعلى الرغم من الصداقة العميقة بين منى وتيرا، إلاّ أن الأخيرة لم تفصح لها عن العلاقة التي بينها وبين فادي. ربما كانت تنتظر نضوجها؟

كان فادي، لشهور خلت، هو الإنسان الذي تفكر فيه تيرا وهو أمامها فقط، أو عند الاتصال. لكنه منذ أيام، أصبح الصورة التي تقتحم مخيّلتها أثناء النهار أحياناً، وقبل النوم بشكل شبه دائم. وأدى هذا التغيير الداخلي، إلى آخر خارجي. جعلته يشعر بحبها، لكن من دون أن تقولها صراحة. أصبحت تطلبه في العمل، وإذا لم تجده كانت تترك له رسالة شفهية: «اتصلت تيرا اليوم، وعليك الاتصال عند حضورك».

ـ ماذا فعلتَ يوم فاجأتنا الراجمة عند نهر الكلبْ؟

ـ أنتِ تعرفين.

ـ وتنوي تكرار ما فعلته؟

ـ طبعاً، لأن الراجمات تسير في الطرقات معنا.

ـ وإذا اختفت الراجمات؟

ـ (ضاحكاً) نتزوج.

ـ هل تفكر بذلك فعلاً؟

ـ منذ أول جملة قلتها لكِ، كان الزواج هدفي.

ـ هل تصدّق إنني لم أفكر فيه حتى اليوم؟

ذات يوم، هاتفته تيرا وأخبرته أنها لا تنوي الذهاب إلى عملها، لأنها تريد الذهاب إلى البحر، وإذا أراد الذهاب معها، فعليه أن يترك عمله في الأشرفية، ويلحق بها إلى موقف السيارات في جل الديب بعد ساعة. وعند العاشرة صباحاً كان فادي منتظراً بسيارته في موقف السيارات. وجاءت هي وتركت سيارتها هناك، وانطلقا.

ـ (ضاحكاً) أتسمح لي الأميرة بالذهاب لشراء لباس بحر أولاً؟

ـ وأين تنوي الذهاب بعد ذلك؟

ـ إلى شاطىء عمشيت.

ـ عمشيت؟!

ـ لا تنسي أن بواخر البنزين ترسو ليلاً.

ـ هل القصف يستهدف المنطقة ليلاً فقط؟

ـ معظم الأحيان.

ـ اتفقنا يا حضرة المبصّر.

أثناء ذهابهما إلى عمشيت، تقع على بعد خمسة وثلاثين كيلو متراً شمال بيروت، فاجأتهم قافلة طويلة مؤلفة من

عشرات السيارات المسرعة بشكل جنوني يحمل ركابها الأعلام اللبنانية، ويهتفون بحياة العماد عون. احاطتهما القافلة فجأة، وبسرعة إختفت. وقال فادي وهو يمد يده لسحب شريط الأغاني من المسجلة:

- يبدو أنهم عائدون من القصر، بعد خطاب ناري للعماد.
- إترك شريط الأغاني، ولا تسمع أخباراً.
- معك حق. البحر والأخبار لا يلتقيان.
- خطأ. الجمال (وأشارت إلى نفسها) والأخبار لا يلتقيان.

وصلا إلى شاطىء عمشيت الرائع، ونزلا من السيارة يبحثان عن مكان للجلوس، ثم عاد فادي ليرتدي لباس البحر داخل السيارة.

استلقيا على حصيرة فوق الشاطىء الرملي، والمساحات الخضراء تحيطهما إلى أن تصل الأشجار إلى نقطة تختفي فيها، لتبدأ قمم الجبال العارية في خلفية البانوراما، ملتصقة بزرقة صافية لسماء الصيف. شمس أواخر حزيران، تسكب حرارتها على المكان والأشجار والأجساد. والكائنات البشرية المتعبة تحتها - وليس منها - ذهبت لتسرق ساعات هدوء، بعيداً عن صخب بيروت وحوار مدافعها. بضع عشرات من السابحين فقط، لأن اليوم كان أربعاء. وكانت الشمس تستحث العرق لكي يخرج من مسامهم، وتلمس البحر

بأصابع سحرية فتجعله يتموّج جهة الأفق بسطح لؤلؤي.

روّاد البحر في عالمهم، وفادي في عالمه. لا يدري لماذا رجع إليه مرح الطفولة وخيالاتها السحرية، التي يخجل الكبار من ذكرها علانية، على الرغم من انهم كانوا أطفالاً.

الأنثى الرائعة شلّت لسانه وجعلته صامتاً. أحس فجأة كأنه أمام شيء أكبر من ذاته وأعمق من البحر. لم يقدر أن يفسر ما الذي فعله جسدها بتفكيره. أول مرة يراها فيها شبه عارية وقريبة منه بهذه الطريقة. شعور غامر شمله ووصل إلى نخاع عظامه، وجعل خلاياه كلها تنبض.

ـ خير إن شاء الله؟ أراك صامتاً.

همست له وهما مستلقيان على بطنهما تحت الشمس.

ـ صامت أمام الزهرة الوحيدة في صحراء حياتي.

ـ هل تعلم أن كلماتك لا تناسب طبيعة عملك؟

ـ والمحاسبة لا تناسب هذا الجسد الموحي بالشِعر.

ـ هل أنت بستاني أم شاعر؟

ـ بستاني يكتب شعراً.

ـ هل كنت رقيقاً دائماً مع المرأة؟

ـ هذه أول...

ـ لن أصدقك.

ـ أول مرة أحب فيها.

دقائق مرت.. ساعات... لم يدريا. حتى الأكل لم يفكرا به. حديث طويل بللته الرطوبة. مياه مالحة غسلت جسدين.

بحر غطى ورطّب لمسات حارة. استرخاء على الرمال وصل الآن بالأبد.

البحر في المرة الثانية أشعل اللمسات، والشمس تميل قليلاً وتعلن قدوم بعد الظهر، والمشهد من قمم الجبال نزولاً إلى مساحات الخضرة التي تحتضن الشاطىء، يشكل معزوفة كونية تغنّج الحبيبين، لم يعكرها إلاّ سيارتي «جيب» على رمال الشاطىء لميليشيا «القوات اللبنانية»، وانتبهت تيرا لهما وقالت لفادي:

ـ حتى هم يذهبون إلى الشاطىء؟!

ـ من هم؟!

ـ «القوات اللبنانية»

انتبه فادي لوجود السيارتين، ونظر باتجاه الأفق، ورجع ببصره إلى السيارتين.

ـ أنظري!

ـ ما هذا؟

ـ باخرة تحمل البنزين.

ـ م...

سقطت قذيفة بين الباخرة والسابحين الذين هرعوا إلى الشاطىء. وكان الحبيبان في جملة الهاربين، ووصلا إلى أغراضهما القليلة على الشاطىء الرملي، بينما القذائف تتوالى وتسقط في البحر، والباخرة تتراجع محاولة الوصول إلى ما بعد الخط الذي تسقط فيه القذائف.

ركبا السيارة وهي في حالة ذعر شديد، وطلب منها فادي أن تجفف شعرها وترتدي ثيابها داخل السيارة، فلا وقت لديه للبقاء في عمشيت. وكانت تيرا تفعل من دون وعي ما يطلبه منها، والسيارة تنطلق بسرعة مجنونة.

ـ إلى أين؟

ـ حيث تلاقينا.

ـ والقذائف؟

ـ لن توقفني!

كانت السيارة تطير، تاركة عمشيت تحت وابل من القذائف، التي كانت تمر فوق السيارة بصوت مخيف، قبل السقوط بالقرب من الساحل وفي البحر. وكان فادي يقود بحالة تركيز شديد، خوفاً من حدوث حادث سير مع سيارة هاربة أخرى، وبين لحظة وأخرى كان ينظر إلى تيرا، ليرى أين وصلت في عملية تجفيف شعرها وارتداء ثيابها. ولم يكن حاله أفضل منها، لأنه كان يقود حافياً وبلباس البحر. ووصلت السيارة من الطرقات الفرعية داخل عمشيت، إلى الطريق الرئيسية الموصلة إلى بيروت، ثم انطلقت كأنها على مدرج مطار.

ـ حاول أن تخفف السرعة، إننا نغادر عمشيت.

ـ إخرسي تماماً، إننا في ميدان معركة.

ـ هل ستمتد إلى بيروت.

ـ أظن ذلك لأن الجيش اللبناني سيردّ حتماً.

وصلت السيارة إلى الموقف الذي تركت تيرا سيارتها فيه، وكانت القذائف فعلاً قد بدأت تتساقط على ضواحي بيروت، وأصوات المدافع الرابضة في الجبال المحيطة ترد على مصادر النيران. وابتسم فادي ابتسامة بلاستيكية بينما تيرا تغادر سيارته.

ـ بينك وبين منزلكِ ٧٥٠ متراً. إذهبي بهدوء.

ـ وأنتَ؟

ـ سأواصل السير إلى منزلي، حتى لو أمطرت قذائف.

ـ أنت مجنون!

ـ كل مشوار للبحر وأنت بخير. Adios.

ـ وأنت بخير.

ـ سأنام وأنا بين التموجات.

ـ أي تموجات يا خبيث؟

انطلق فادي بسيارته، بينما القذائف تتساقط على الطريق الساحلية المؤدية إلى مرفأ بيروت. ونظر إلى قدميه العاريتين ولباس البحر، وضحك.

ـ إنها لا شك تحبني، على الرغم من انها تمطر قذائف!

***

كانت الحياة تسجل، كدأبها، ما يحدث في بيروت آنذاك بصمت ونزاهة. سجلت الحياة ما حدث خلال معارك عبثية، دارت لمدة أربع عشر سنة بالقسوة نفسها التي حارب بها المقاتلون.

صنع الإنسان الحواجز بين المناطق اللبنانية، سواء بوضع المستوعبات في مناطق، أو بأكياس الرمل في مناطق أخرى، وما سُميَ بالأرض المحروقة، أو زرع حقول الألغام. وسجلت الحياة اختفاء الحيوانات الأليفة من البيوت والطرقات، واندثار الحدائق العامة، وقلّة عدد الطيور في الأحراج، وندرتها في الأشجار المتبقية في بعض المدارس، وفوق الساحل اللبناني.

وزاد اختفاء الإضاءة نهائياً من الطرقات، وإشارات السير والمرور الكهربائية، من وحشة المشهد البانورامي لمناطق البلد كافة، ما جعل الأشباح البشرية هي التي تمشي في الطرقات ليلاً، والسيارات المسرعة تقطع شوارع الموت، لاضطرار أصحابها إلى مغازلته، لسبب ما من أسباب معيشتهم، وسط هدير المولدات الكهربائية الخاصة بالمنازل والأحياء، بسبب انقطاع التيار الكهربائي الآتي من معامل الدولة الحرارية، بسبب تلف أشرطة الكهرباء، أو الأذى الذي يلحق بالتمديدات نتيجة القذائف.

الطبيعة ترسم بألوانها وأسرارها، علاقة الإنسان بمحيطه وبيئته. قدوم الصباح يعني، في الأحوال العادية، انطلاق الكائنات الحية نحو العمل. والليل قد يعني الترفيه أو الراحة.

في هذه الفترة القاتمة من تاريخ لبنان، الصباح كان يعني مغامرة الخروج من المنزل، التي قد تنتهي بالذهاب إلى

المستشفى، أو عدم العودة إليه نهائياً. أما الليل فكان طلاسم الموت المتمثلة في القذائف العشوائية، والقناصة الذين تنطلق رصاصاتهم فجأة، لترسل الأحياء إلى عالم النسيان.

من الأمور اللافتة فعلاً، أن مسيحيي شرق بيروت، تعودوا على السهر ليلة السبت خارج منازلهم، مهما قست الظروف الحربية، وانحنت معنويات الناس تحت فداحة خسائرهم. لكن هذه العادة اختفت عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠، وحلّ محلها ملازمة المنازل، أو التزاور في أضيق نطاق. ولم يشذّ عن هذه القاعدة سوى ملهيين ليليين صغيرين، أحدهما في الأشرفية قرب وزارة الخارجية، والآخر في ساحة جونيه. إضافة إلى بضع دور سينما في الدورة وجل الديب، تعرض أفلاماً إباحية، يقصدها المراهقون.

اعتاد الناس على تغيّر رائحة لبنان تبعاً للفصول. رائحة الأرض بعد سقوط المطر في الشتاء. رائحة زهر الليمون في الربيع. رائحة الرطوبة على الساحل، والهواء الجاف في الجبال صيفاً. مشاغبات البرد في الخريف، ورائحة الأوراق اليابسة الواقعة على الأرض من الشجر.

اختفى كل ذلك، وجاءت رائحة بارود القذائف، والزبالة المقيمة في زوايا الشوارع، ورائحة الحديد المحترق من بقايا السيارات المصابة على الطرقات، والصادرة من حرق النفايات في الصناديق الحديدية، إذا زادت ارتفاعاً عن قامة الإنسان، بحيث يرتفع منها الدخان ببطء، وهو لا يعكس بأي حال

حركة دخان الإشاعات في البلد.

وعلى الرغم من أن التحرك بين المناطق اللبنانية كافة، كان صعباً وخطراً على أي فرد، إلاّ أن فادي كان يتحرك في بيروت بثبات وبساطة. لم يدرك كيف تكوّن هذا الشعور لديه. وعلى عكس ذلك، كان يجد التحرك خارج بيروت خطراً ومقبضاً، ومغامرة في المجهول يصعب عليه خوضها.

كان يرى ردّة فعل الزملاء في العمل، بعد كل عودة من غرب بيروت الإسلامية، لا توازي فعلاً غنى التجربة التي يعيشها. كان زملاؤه يرون خطر الخطف أو القتل فقط.

ـ على ماذا تتكل في ذهابك إلى هناك؟

ـ أنا لا أنتمي إلى أي حزب أو ميليشيا.

ـ غلطان. أبرياء كُثُر ذُبحوا.

ـ هذا رهاني وأنا مرتاح نفسانياً.

ـ صاحب العمل يستفيد منك، لأنه لن يجد حماراً مثلك يذهب إلى هناك.

ـ هل وصل تفكيركم إلى هذه النقطة فقط؟

ـ ونقطة أخرى ستتذكرها عندما تمشي السكين على رقبتك.

من الأماكن التي كان يثيره فعلاً التردد إليها، دار نشر «الفينيق» لمليونير، سمع عنه ولم يره، جمع أموالاً في أميركا الجنوبية، وعاد إلى لبنان ليعمل في إصدار الكتب والطباعة التجارية.

كان دار «الفينيق» في إحدى البنايات الفخمة في منطقة فردان. وعرف بعد تردده أكثر من مرة، من ثرثرة الموظفين الذين يتبرعون بالكلام، أن «الشيخ» ـ هكذا كانوا يطلقون على صاحب الدار ـ كان يملك الكثير، لكن الحرب لم تُبقِ له سوى هذه الشقة، التي ما زال من خلالها متمسكاً بوجوده في السوق، بالرغم من احتجابه العجيب في غرفة، يصل إليها التاسعة تماماً، ليتركها عند الثالثة بعد الظهر. ويقول القريبون منه إنه استوعب كوارثه بصبر الناسكين. وهو رجل ذو ثقة، ويعطي الصلاحيات لمن يثق به. وهذا ما يفسر احتجابه في غرفته.

جعلت الحرب خريطة بيروت ولبنان، تشبه لعبة المتاهات في كتب الأولاد الصغار، وزوايا التسلية في المجلات.

الطريق من عين الرمانة، حيث يسكن فادي، إلى كفرشيما يُفترض أن تُقطع بالسيارة في عشر دقائق، إذا سلك الإنسان طريق صيدا القديم حتى مدخل كفرشيما الغربي، قبل بلدة الشويفات. وحيث أن منطقة الضاحية الموازية لطريق صيدا القديم لجهة الشمال شيعية، يكون المرور خطراً جداً، لأن السيارة مكشوفة لحزب الله وميليشيا أمل.

لذلك كان فادي يسلك طريقه صعوداً من عين الرمانة، باتجاه الحازمية، ثم إلى الحدث، ومنها إلى سبنيه، التي ينطلق منها نزولاً إلى الطريق الشرقية لكفرشيما بين المعامل والمصانع، المحيّدة تقريباً عن القصف المدفعي، ثم يسلك

طريقه بين بساتين الزيتون والليمون، مع عدم إضاءة سيارته، إذا كان الوقت ليلاً، لكي لا يكون مكشوفاً للدروز في منطقة المعروفية، الأعلى من كفرشيما.

ـ حمداً لله على السلامة. هكذا كان يبادره أبو ريمون دائماً.

ـ شكراً. أظن أن صديقي لم يصل بعد.

ـ سيصل بين لحظة وأخرى. تفضّل.

دخل فادي إلى المنزل، ورأى شاباً مقعداً على كرسي متحرك، فاتجه نحو محيياً، ومد الشاب يده اليمنى مصافحاً فادي الذي قدم نفسه إليه:

ـ فادي انطون

ـ صديقي وجيه. قال نديم ديب.

ـ تشرفنا، قال فادي واتجه نحو كرسي قريب ليجلس.

ـ كيف أحوالك اليوم يا عم نديم؟

ـ جيدة جداً، خصوصاً أنني رأيت وجيه اليوم.

كاد فادي يقول «لكنني أراه عندك لأول مرة»، لكنه تراجع في آخر لحظة. وانتبه أبو ريمون واستطرد قائلاً: ومنه استمد التفاؤل لمواجهة ما يحدث.

ـ تستمد تعلّم الرضوخ للأمر الواقع، يا عم نديم. قال وجيه.

ـ كل الناس ترضخ للأمر الواقع، لكن التفاؤل ينقصهم. قال نديم.

ـ ماذا حدث لك يا وجيه؟ سأله فادي.
ـ أصابت رصاصة قناصة عمودي الفقري.
ـ هنا في الضيعة.
ـ نعم. والحادث كان على الطريق بعد دير القرقفي.
ـ هل جربت أن تعمل يا وجيه؟
ـ الأصحاء عاطلون عن العمل هذه الأيام.
ـ حاول أن تعمل شيئاً يدوياً، ولو في منزلك.
ـ فكرة لم...
رن جرس الباب وذهب فادي ليفتح.
ـ لماذا لم تفتح بمفتاحك؟ سأل فادي ريمون.
ـ لأنني رأيت سيارتك في الخارج. ردّ ريمون.
ـ رذالة. قال وجيه.
ـ يا ريمون. قبل أن تعمل أي شيء، أوصل وجيه إلى منزله. قال أبوه.
ـ ولا حتى احتساء فنجان قهوة؟
ـ ستجده حاضراً بعد ربع ساعة.
ـ هل تريد مساعدة يا ريمون. سأله فادي.
ـ وجيه وأنا لسنا بحاجة إلى مساعدة. أجاب ريمون.
دفع ريمون الكرسي المتحرك، بينما كان وجيه يودّعهم، إلى خارج المنزل، وسار نحو سيارته. وأغلق أبوه الباب وهو يتنهد ويقول لفادي:
ـ أنت تعلم أن كل هذه الحروب لم تعنِ لي شيئاً.

ـ وهل استجد شيء اليوم لتغيّر رأيك؟
ـ هذا الفتى وجيه، يوجع لي قلبي عندما أراه.
ـ مسكين.
ـ هو الأمر الوحيد الذي عنى لي منذ بداية كل هذا الجنون.
ـ لأنه أُقعِد؟
ـ لأنه كان بعيداً عن كل شيء. كان الفتى نجاراً، وبيته كما قال لك بعد دير القرقفي، وكان يعمل في بسابا في فبركة صغيرة. وكان يسير هذه المسافة الصغيرة يومياً، لكن تحت الخطر، لأن الدروز كما تعلم، في المعروفية وهي أعلى من كفرشيما وبسابا. وكان القنّاص يجلس أحياناً بين عمودي كهرباء التوتر العالي، هل تعرف مكانهما؟
ـ نعم أعرفه.
ـ كان القناص يتصيّد المارة على هذا الطريق، ولذلك وضع أهالي بسابا بعض المستوعبات باتجاه المعروفية، حتى لا يصل رصاص القنص إلى المارّين. لكن القناص الماهر كان يتصيد الناس، وهم يسيرون في الفراغات بين المستوعبات.
ـ ومتى أصيب وجيه؟
ـ منذ خمس سنوات، صعدتُ إلى كنيسة بسابا في خميس الأسرار بعد الظهر، لأن الليل يحمل مفاجآت

دائماً. وبينما أنا منفرد في الكنيسة أصلي، مزّق سكون بعد الظهر الهادىء رشق رصاص مضاد، تبعه رشق آخر.

خرجت من الكنيسة راكضاً، وسمعت على الباب صوت امرأة تصرخ من على شرفة قريبة: أصابوا شخصاً. تابعت ركضي حيث أشارت المرأة، لمسافة ستين متراً تقريباً، وحين وصلت تبين لي أنه وجيه.

كان مقوصاً كأنه قطعة قماش، وكمية الدم الخارجة من ظهره قليلة. حتى اليوم الرصاصة لم تزل في ظهره. وكما تلاحظ، يتضخم الجزء الأعلى منه لعدم الحركة، وقدماه ضعيفتان.

- أنت تأثرت لأنه كان بعيداً عن الميليشيات؟ سأله فادي.
- تأثرت (وبُح صوته) لأنه كان يُعيل أمه. أخوه في أميركا لا يبالي. وبسنا أحذية مسؤولي «القوات اللبنانية» هنا لكي لا يجنّدوه. لكن أنظر ماذا حدث!
- هل هو قريب لك؟
- لجهة عائلة أمه. لكن أنا لم أسكت. ذهبت إلى مسؤول «القوات اللبنانية» في المنطقة، وقلت له: أفهم أنكم تجلسون هنا ويجلسون هناك، وتتراشقون بالمدفعية، وتتهدم بيوتنا فوق رؤوسنا. لكن أن تتركوا قناصاً أخو ... يصطاد الأبرياء وهم يذهبون

إلى العمل، فهذا كثير وأنا لا أفهمه.

ـ وماذا كان رده؟

ـ قال: وماذا تريدني أن أفعل؟ قلت له: ضع قناصاً يصطاد الأبرياء عندهم. أجاب: لا يمكن، عدد عناصري قليل، ومنطقتهم أعلى. قلت له: ضع قناصاً لمجرد إثبات الوجود.. حتى لو لم يقتل أحداً... إفعل أي شيء. وعندئذٍ، طلب مني جلب قنّاصٍ متطوعٍ من الضيعة، ووعدني باعطائه السلاح المناسب.

ذهبت إلى شخص عمل مع «القوات اللبنانية» فترة، وطلبت منه إسداء هذه الخدمة لي، فوافق. أعطوه قطعة سلاح يا فادي، تستاهل أخذ روح رجل. وكان يذهب للتدرب عليها، وأنا معه لأحمّسه. وكان ابني ريمون يسأل ساخراً: وماذا يفيد وجيه ما سيحصل؟

ربضنا أنا وهو أكثر من ثلاثة أسابيع، في أقرب نقطة إلى عمودَيْ التوتر العالي. كل يوم كنا نذهب، تحت أشجار الصنوبر، بعد الغذاء حتى الغروب.

ذات يوم انحبس نفس صاحبنا وهو يتكلم معي وقال: هل ترى الرجل؟ أجبته: لو كنت أراه، ما طلبت هذا المعروف منك.

ـ أنظر يا فادي إلى شعر جسمي!

اختفت أنفاس الرجل الذي بجواري، وتهيأ وأصبح كأنه

صخرة، ثم تحرك اصبعه فقط، وانطلقت الرصالة التي تردد صداها في الوادي. كان أجمل صدى سمعته في حياتي.

لبثنا سوياً بلا حراك لمدة دقيقة تقريباً. ثم قال صاحبنا: اعتقد أنني أصبته. وبعد برهة أخبرني أن شخصاً جاء يتفقد ما حدث وهو يزحف، ثم ذهب ولم يعد. ولم نتحرك من أماكننا حتى الغروب، وتحت رداء الليل رجعنا.

- وماذا حدث يا عم نديم؟
- قتله.
- كيف عرفت؟
- أنت تعلم أننا ضيع متقاربة على الرغم من الحرب، وأن الأخبار تتناقل. لقد أصابه في رأسه. ملعونة الحرب يا ابني.
- أظن أنكما تنتظران فنجانيّ قهوة. قطع ريمون حديثهما فجأة.
- ريمون؟ كيف دخلت؟ لم أحس بك. قال فادي مندهشاً.
- من الباب الجنوبي حتى لا أقطع خلوتكما. لقد قدّرت أن هوميروس سينشد إلياذته.
- وسمعتها وأنت في المطبخ؟
- من المقطع الذي يبدأ «انظر يا فادي إلى شعر جسمي».

ضحك فادي حتى استلقى على ظهره، وكادت أنفاسه

تقف عندما غمز له العجوز وقال له همساً إن ابنه يسخر منه. وقال ريمون لهما: يحق لكما أن تضحكا وتنسجما، خصوصاً أن الجلسة ستكتمل بعد ثوانٍ بحضور داني، لأنني آراه آتياً من الشباك.

ـ سيبكي ريمون عندما يتذكر الإلياذة بعد عشرين سنة. لقد رأينا اللامعقول هنا. قال أبوه.

ـ إنه يمزح فقط.

ـ يا فادي. نسيت أن أقول لك إنه أثناء الاجتياح الاسرائيلي للبلد، كان هناك مركز لليهود أمام بناية ياغي في بسابا.

ـ مركز ماذا؟ سأله فادي.

ـ معسكر دبابات كانوا يقصفون منه الضاحية الجنوبية. لقد رأيت اليهود. وكما قلت لك أتمنى رؤية الروس.

ـ لقد نسيت يا أستاذ مادة التاريخ أن اليهود من جنسيات مختلفة. ومن المحتمل أنك رأيت الروس!

ـ إذاً امرأة من هاواي.

أحس فادي بأنه يرى نديم ديب لأول مرة. العصامي الذي يعمل في حديقته على الرغم من انه في السبعين، المتحمس لحادث واحد فقط من فصول الحروب اللبنانية، الأرمل الخائف على ابنه الوحيد في آتون مشتعل، الرافض تماماً ما يحدث، لأن لا نتيجة من ورائه، كما يقول. المبتسم

المحافظ على صفاء مزاجه، مع أنه يعيش على خط تماس.

جاء صوت داني من الخارج، واضحاً صافياً هذه المرة لعدم وجود أصوات قذائف، ولكونه فوق مستوى سطح الأرض.

الشعب اللبناني عناده زاد بقوة عماده

من غيرك هز المسمار(*) يا قائد عون الجبار

جيشك رح يبقى يدافع مش رح تسكت المدافع

تيحرر أرض بلاده

نهض فادي وذهب ليفتح الباب الغربي لداني الذي خطا خطوتين داخل الشقة ثم توقف، وغنى مكرراً بيت زجل محدداً، وهو ينظر إلى أبي ريمون:

مين غيرك هز المسمار يا قائد عون الجبار

ـ ادخل يا داني ولا تغيظني بدونكيشوت. قال أبو ريمون.

ـ أهلا يا داني. قال فادي

ثم متسائلاً: لماذا تغيظ عم نديم؟

ـ لأنه يعتقد أن العماد عون يطلق مدفعاً لتأتي زوجته بالفطور!

(*) المقصود بالمسمار هنا الجيش السوري الذي كان يحاربه العماد ميشال عون.

ـ داني! بلا حكي سياسة!

ـ مساء الخير جميعاً. هاي ريمون هل انتهيتم من ذبح العالم مبكرين اليوم؟

ـ عملية فتاق واحدة. تفضل يا داني.

ـ كان تعارفنا المرة السابقة سريعاً وغريباً يا داني. قال فادي.

ـ كحياتنا تماماً. سريعة وغريبة.

ـ هل تسكن قريباً؟

ـ لا. أنا من سكان الأشرفية.

ـ أي منطقة فيها؟

ـ بجوار ثكنة سيّار الدرك.

ـ ويأتي إلى هنا من دون سيارة. قال ريمون.

ـ حتى في أيام القصف؟ كيف تستطيع ذلك؟ سأل فادي.

ـ استغنيت عن أشياء كثيرة في الحياة. أجاب داني بهدوء.

ـ ماذا تعمل يا داني؟ سأل فادي.

ـ في قسم تسويق العطور بإحدى الشركات.

ـ وهل هو عمل مربح في هذه الأيام؟

ـ لن تصدق. نحن نبيع أكثر من الخبز!

ـ مفارقة غريبة إذا كان ما تقوله صحيحاً.

ـ يا محترم! أنا لا أمارس اللذة الحيوانية مع أي

مومس، خوفاً من دخول قذيفة إلى غرفتي تفسد هذه المتعة، بينما قادة الميليشيات عندنا ينجبون! مفارقة غريبة أخرى. قال داني.

- مارس العادة السرية. إنها أكثر أماناً. قال ريمون.

قهقه الجميع على جملة داني، ورد ريمون المفاجىء عليها، وقال نديم ديب من خلال ضحكه:

- إذن يجب... أ... أن... ت... تزوج قريباً.

- يا عم نديم، أنت تعلّم ما أنوي فعله.

- (من خلال ضحكه) الأفضل أن تهاجر وأنت متزوج. متزوجٌ أكثر احتراماً من أعزب.

- أكثر احتراماً أم أكثر أماناً؟ تساءل داني.

دارت ركوة القهوة على الحاضرين، وصب كل واحد منهم مرتين، ما عدا داني الذي أوضح لفادي أنه لا يشربها لأنها مضرّة. وتحدثوا أثناء احتساء القهوة عن الهدوء على جميع المحاور القتالية، بسبب وجود النواب اللبنانيين في مدينة الطائف السعودية، للوصول إلى حل للأزمة اللبنانية برعاية إقليمية. وكيف أن المحادثات بين النواب المسيحيين، والعماد عون في بيروت تبدو وعرة وعسيرة، والوصول إلى بلورة حل نهائي تبدو مستحيلة.

امتدت السهرة حتى منتصف الليل تقريباً، والأصدقاء ينتقلون من موضوع إلى آخر، من دون ملل أو تثاؤب. وعند نهاية السهرة رجع داني مع فادي بسيارته، وعند الوصول إلى

منزل الأول بالأشرفية، أصر أن يصعد فادي معه:

ـ الهدوء سائد، وغداً إجازة. إصعد معي من دون حجج.

صعد الدرج إلى الطابق الرابع، لعدم وجود كهرباء الدولة، والمولدات الخاصة تقف عند منتصف الليل لينام الناس. وفتح داني باب شقته وأضاء لمبة فلورسنت، ثم دخل إلى إحدى الغرف وأضاء أخرى.

ـ تفضّل يا فادي. كما ترى، دائرة بسيطة مكوّنة من شاحن وبطارية كبيرة ولمبة. كما يفعل معظم الناس.

لاحظ فادي أن الشقة صغيرة وخالية من المفروشات، وعندما دخل مع داني إلى الغرفة الأخرى المضاءة، رأى أنها تحتوي سريراً حديدياً لشخص واحد، وفي أقصاها برّاد صغير، وقرب السرير يوجد كرسي واحد. وقد اندهش لوجود جهاز تلفون بجوار السرير وبضع مجلات وصحف.

ـ لا تندهش، فأنا أنتظر موافقة الهجرة إلى أميركا. قال داني.

ـ ولماذا تضع السرير. . . قال فادي

وقاطعه داني مكملاً: في وسط الغرفة كأنه تابوت.

ـ صحيح.

ـ أنا هنا لعازر، الذي ينتظر يسوع لكي يقيمه.

عرف فادي أن داني منذ أن كان مراهقاً، دب الخلاف بينه وبين أهله الأغنياء. كانت عقليته تختلف تماماً عن عقليتهم.

حاول أهله دائماً رسم طريق العلم والحياة له، لكنه رفض كل شيء. تعلّم في المدارس حتى المرحلة الثانوية، ولم يود كثيراً أن يبدأ تعليمه الجامعي. أراد أن يعمل بالتجارة عكس إرادة أبيه، وترك المنزل بعد احتدام الأمور بينهما. لكن الأب لم يشأ أن يترك ابنه، فساعده على الاستقلالية وأجّر له الشقة التي يسكن فيها حالياً، وجهّزها بخط تلفوني ليطمئن على ابنه العنيد.

- اعتبرتُ الحياة نفسها مدرسة، وطريق أتعلم منها الصح والخطأ. أخطأتُ كثيراً، وأخطأت الظروف معي. قال داني.
- وأين أغراض الشقة التي اشتراها أبوك؟ سأل فادي
- بعتها، إنني في وضع استعداد للسفر.
- هل كل ما قلته يفسر وضعك الحالي الآن؟
- ستعرف أموراً كثيرة أيضاً. لا أريد أن أربك عقلك بها مرة واحدة.
- إنني مندهش فعلاً.
- يا فادي! أردتُ أن أعيش مستقلاً، فكنت حطب المعارك منذ مراهقتي. لقد سئمت، ولذلك سأهاجر. وأنت ماذا ستفعل؟
- أكافح وأعيش قصة حب وأمل بالغد.
- أنت أقوى إنسان يعيش في هذه المحرقة، على الرغم من أن ظروفك بالغة التعقيد كما قالها لي عم نديم.

ـ على فكرة، لماذا أنت وهو على خلاف دائم؟
ـ خلاف ظاهر ومحبة عميقة باطنة.
ـ كان ذلك هو إحساسي، لكنني لم أصدقه.
ـ إنه رجل فريد فعلاً.

رجع فادي إلى منزله والحديث مع داني يدور مرة أخرى في ذهنه. وكانت بيروت غارقة في ظلمة شبه تامة. ووجه تيرا وصوتها ينسابان في ذاكرته. وعندما فتح باب شقته، وجد أمه في انتظاره، بنظرة عتاب كبيرة، لكن من دون هلع.

ـ إنها الثالثة بعد منتصف الليل يا بني.
ـ سهرت مع أصدقائي، وغداً إجازة.
ـ قدّرتُ ذلك، لكن قلبي لم يسمح لي بالنوم.

* * *

ساعدت الأجواء الأمنية الهادئة، أثناء مفاوضات مدينة الطائف، البيروتيين على ترميم ما أصابهم ممّا أطلق عليه العماد عون «حرب التحرير»، وأزيلت السيارات المحترقة من الشوارع، ووضع زجاج جديد للنوافذ والشرفات، بدلاً من الذي انكسر بسبب الشظايا أو ضغط الهواء المصاحب لوقوع القذائف أو انطلاقها.

إضافة إلى الأمور المادية التي انكسرت، حاول الناس ترميم الأمور الحياتية التي تضررت، كالتزاور واستمرارية الحياة العادية لأي إنسان، بسبب تحول بيروت إلى ساحة

معركة شرسة، لم ينقصها سوى اشتراك الطيران فيها فقط.

تمخضت المفاوضات في المدينة السعودية عن «وثيقة الطائف» واتهم العماد عون النواب صراحة بالخيانة، وفتح إعلامه عليهم هجوماً نارياً، حرم النواب المسيحيين القاطنين في المناطق الخاضعة تحت إدارته مباشرة، من العودة إلى ديارهم. وقد انتهى هذا الهجوم الناري بحل مجلس النواب اللبناني بقرار منه بصفته رئيساً لمجلس الوزراء، لإضفاء عدم الدستورية على الرئيس الذي سينتخبه النواب. لكن النواب اجتمعوا في بلدة القليعات، شمال لبنان، وانتخبوا زميلهم رينيه معوض رئيساً.

كان رينيه معوض رئيس الإجماع والاتفاق العربي، الذي تم في مدينة الطائف السعودية، بمباركة دولية، لإنهاء الحالة القتالية في لبنان. ولم يكن الرئيس المنتخب من أمراء الحروب اللبنانية المتنوعة التي بدأت منذ العام ١٩٧٥. وقد حاول بهدوء وكياسة التفاوض مع العماد، لإنهاء الحالة القانونية الغريبة. وكان اللبنانيون يتابعون ويأملون أن يصل الرجلان إلى حل.

في هذه الأجواء المفعمة بالهدوء والأمل، ذهبت تيرا إلى منزل فادي في منطقة عين الرمانة، تلبية لدعوة غذاء وجهتها أمه إليها بالتلفون. وأحست تيرا عندما دخلت المنزل لأول مرة، أن أمه تود أن تريها الأجواء التي يحتمل أن تعيش فيها مستقبلاً. وهي أجواء مريحة فعلاً بالنسبة إلى أناس من الطبقة

المتوسطة، يكافحون للبقاء والاستمرارية في عاصمة الموت العبثي والجنون المدفوع الثمن.

ولأول مرة تنتبه تيرا بشدة إلى وسامة فادي، وملامحه التي لا تتطابق مع أمه الحنطية، القصيرة، النحيلة، المرجعيونية ذات اللهجة القريبة من الفصحى، مع بشرته البيضاء وشعره الأصهب وعيناه الزرقاوين.

أبوه كان كذلك. عندنا في الجنوب مثل هذه الطفرات. بل أن بعض الشيعة تظنينهم من السويد. قالت امه رداً على تساؤل عيني تيرا.

كما لاحظت تيرا حالة التدين الواضحة في أرجاء المنزل. صور القديسين المعلّقة على الجدران، خصوصاً القديسة رُيتا، والسيدة العذراء، صاحبة الزاوية المكللة بالورود والشمعة المضاءة، بصفة شبه دائمة، كما قال لها فادي.

أحست تيرا أنها امام امرأة تعبت كثيراً لتربي ابنها، لكنها ما زالت قوية متماسكة على الرغم من أنها تلامس الستين. نظيفة، تهتم بملابسها ومنزلها كثيراً. والذي لم تعرفه، لأن فادي لم يقله لها، هو انها ترمّلت أثناء فترة حبلها بفادي. توفي زوجها بعد عملية بسيطة بسبب تلوث الجرح. ولم يتوقع أحد أن تستمر حاملاً حتى نهاية فترتها، للحزن والهزال الشديدين اللذين أصاباها.

لكن إرادتها الحديدية جعلتها تتمكن من الاحتفاظ بالجنين، ثم تربيه في ظروف صعبة لأنها أغلقت على نفسها الباب،

ورفضت كل طلبات الزواج. تفرغت لابنها، وكانت تعيش معه على إيراد بستان تركه لها زوجها.

تعلّم فادي في بداية حياته الدراسية في مدرسة صغيرة في مرجعيون. ثم وضعته أمه في مدرسة داخلية في بيروت. ولندرة هذه المدارس فعلاً ولخصوصية حالات التلامذة الذين تستقبلهم، قبلت الأم أن تضع ابنها في مدرسة لغتها الأولى ألمانية. وكان فادي يقضي معها العطلات الأسبوعية والأعياد فقط.

وفي المرحلة الثانوية انتقل فادي إلى نُزل يقيم فيه التلاميذ، لأنه انتقل إلى مدرسة غوتيه في رأس بيروت. وبعدها تخصص في اللغة الألمانية بالجامعة ليعمل بالترجمة، لكنه رآها مهنة جافة، فانتقل إلى تعلّم الكمبيوتر، وكان من أوائل التلامذة الذين تعلموه في لبنان.

استطاعت تيرا أثناء الزيارة قراءة بعضاً من سلوك فادي في الحياة وتجاهها. عناده وتصميمه ومن أين ورثهما، الشيء الغامض الموجود في سلوكه نتيجة غياب الأب. الإنسان العاري من الخباثة وصفات الحرب القذرة. خجله الطبيعي من المرأة، على الرغم من دفء الكلمات التي يقولها أحياناً.

بدت الأمور واضحة لتيرا، خصوصاً بعد هذه الزيارة، جديّة نيّة فادي تجاهها، ومحاولته وضع كل الأمور والتفاصيل بصراحة وببساطة أمام عينيها. وكان إحساسها تجاهه يأخذ حيزاً مهماً من تفكيرها، لكن إحساس التريث كان يحثها،

من جهة أخرى، على عدم اعطاء كلمة واضحة عن استعدادها أن تعيش معه حتى نهاية العمر.

شعور غامض كان يقف وراء تريثها، ولم تكن بالتأكيد أوضاع فادي المالية، ولا الاحتمال الكبير بالعيش مع أمه في منزل واحد في المستقبل.

وضع فادي أمامها واقعاً آخر، غير أن يذهب الإنسان إلى عمله ويعود، ويتفادى القذائف بقدر المستطاع، ويعيش أيامه كأنها قماشة واحدة، وليست صفحات كل واحدة منها تختلف عن الأخرى.

أحسّت أنها بحاجة إلى وقت لتقرر كأنثى.. لتختار هذا الرجل الذي يبدو كأنه نغمة نشاز، تراهن على الحياة بسلام في جبهة قتال، وعلى أن هناك غداً أفضل للبلد. وكانت هي تسأله بالذات عن هذه النقطة:

ـ لجيل آخر أم جيلنا؟

ـ أظن لجيلنا.

ـ منتهى التواضع. دائماً تبدأ جملتك بـ«أظن». يا فادي. هذا البلد كله مشاكل، والحرب إحدى مشاكله.

ـ النزاع الطويل معناه أن كل الأطراف راضين به.

كان الصفاء الذي يتعامل به فادي مع الحياة والناس، هو ما كان يجعل تيرا تحدس بأنه سيواجه مشكلة كبرى في حياته. فعلى الرغم من أنه اقتلع من جذوره في مرجعيون، لم

يقع أسير سؤال وجودي أو إحساس عبثي بما يدور.

ـ يبدو إنه تحوّل إلى كمبيوترا كانت تهمس لنفسها أحياناً.

وكانت تظن أحياناً، أن هذا الصفاء واجهة رسمها بدقة، لأنه لا يقدر أن يترك أمه وحيدة ويهاجر بحثاً عن الأفضل، أو يلتحق بميليشيا طائفته ليصل إلى القوة الحاكمة فعلياً على الأرض. كأنه وضع الصفاء قناعاً يخفي قدره، الذي يحس في داخله أنه لا يستطيع أن يغيّره. وإذا حاول سيفشل ويصاب بإحباط، قد يؤذي عزيمته التي يواجه بها الحياة.

كل هذه الأفكار كانت تموج في عقل تيرا. لم تكن تستطيع ان التعامل مع فادي بقلبها فقط، لأن وضعه كان دائم الاستفزاز لعقلها.

سألت صديقتها منى، بعد أن التقتها صدفة، أمام مقهى «الكاستيل» بالكسليك، عن الانطباع الأول الذي خرجت به، بعد أن جلست معهما في المقهى. وكانت إجابة صديقتها منعشة ومبددة للكثير من الغموض الذي يغلف قلبها بضباب حول هذا الحب.

ـ لو رأيت هذا الرجل في مصعد لمدة ثوانٍ معدودة لوقعت في غرامه.

ـ ألهذه الدرجة؟

ـ ولماذا تخفينه عني كل هذه الفترة؟

ـ لا شيء رسمياً حتى الآن بيننا.

ـ حتى لو كانت قصة حب، لماذا تخفينها؟ أين ثرثرة النساء؟!
ـ لم أخفها، ظروف كثيرة تحول دون إعلانها.
ـ أنا أعرفك تماماً. أنت لا تشعرين بالأمان معه.
ـ بالعكس. أنا لا أشعر بالأمان من الحياة التي نعيشها.
ـ ولماذا تحشرين الرجل في أسئلتك اللاهوتية هذه؟
ـ (بعد تفكير) معك حق.
ـ هل ما بينكما جدي؟
ـ نعم، إنه يفكر بالزواج.
ـ عال، وأين المشكلة؟
ـ إنني متشائمة من الظروف، وأفضّل الانتظار.
ـ هل يجتمع الحب والتشاؤم بنظرك؟
ـ من المفترض لا.
ـ إذاً ما تقولينه مجرد أحاسيس سوداء لا داعي لها.
ـ ولماذا لا أستطيع التخلص منها؟
ـ حاولي التخلص من ضغط الأجواء العامة عليك.

***

تدخل الكلمة إلى القلب أحياناً، فتغيّر الرؤية عند الإنسان من النقيض إلى النقيض. أحسّت تيرا بُعيد حديثها مع صديقة عمرها، أنها أخفت قصة حب وتعذبت، بسبب تخيلات وأوهام. قصة حب قد لا تحدث مع كل الناس وعلى الأقل

كان من المفترض أن تفرح بها.

تأكد لها أنها قد أُصيبت مثل معظم أفراد المجتمع، بمرض الشك والانسجام مع العذاب، على الرغم من أنها حاولت بكل جهدها أن تكون بعيدة عن الأحداث، وظنّت أنها بعيدة عن أمراضها أيضاً.

بدا لها أن وجود إنسان مسالم في مجتمع الوحوش، قد أثار شفقتها عليه، ما جعلها تنفر منه. مع أن الوقائع تقول إنه يعيش ويكسب رزقه ويحاول أن يطور نفسه. وليس هناك من داعٍ للخوف على مثل هكذا شخص، طالما هو يعيش محتفظاً بإنسانيته.

لمست منى وتراً نسائياً حساساً عند تيرا بعبارتها: «أنا أعرفك تماماً. أنت لا تشعرين بالأمان معه». ووجدت أنها فعلاً تشعر بالأمان معه، ولم تشعر ولا مرة أنه استغلها بشيء. ولم تتمالك تيرا نفسها وضحكت بصوتٍ عالٍ عندما تذكرت سؤال منى: «ولماذا تحشرين الرجل بأسئلتك اللاهوتية هذه؟».

تذكرت طريقة أداء صديقتها الذكوري، عندما يفيض الملل بها، أو تجد أن الأمور غير معقولة أمامها. منذ أيام الدراسة، كانت تنال تعنيفاً يشبه تعنيف الأساتذة للصبيان، لأنها كانت تتصرف مثلهم أحياناً. وتذكر تيرا تماماً اليوم الذي سألتها فيه منى عن التلميذ «الجربان» الذي يحاول التقرب منها في المدرسة. وعندما قالت لها إنه زميل ولا يمكنها أن تجعله

يتضايق. قالت لها: انتبهي، لأن صفحات كتبه أصابها الجرب. لقد استعرت كتاباً منه ووجدت ورقه أصفر.

الأحاسيس الناعمة التي استيقظت في وعي تيرا، جعلتها تقبل دعوة فادي إلى الغذاء في مطعم على طريق المعاملتين، كأنها أول دعوة تخرج فيها معه. ذهبت بكامل أناقتها بعدما عطّرت نفسها بعطر جديد اشترته لهذه المناسبة. ووصلت بسيارتها إلى الموقف المعتاد في جل الديب، خلف «طيران الشرق الأوسط»، وكان هو ينتظر في سيارته. استقبلها بعينين مندهشتين بسبب الأناقة المفرطة التي يراها بها لأول مرة.

ـ أنتِ اليوم فعلاً أجمل فتاة في لبنان.

ـ في الشرق الأوسط. صحّح معلوماتك. قالتها ضاحكة.

الطريق إلى المعاملتين كانت شبه خالية، لأن اليوم كان إجازة بمناسبة ذكرى الاستقلال. الذكرى التي حافظ اللبنانيون على الاحتفال بها، على الرغم من الأهوال واللامعقول الذي يحيطهم. وبينما كانا منطلقين نحو وجهتهما، ظهر سرب عظيم من السيارات التي يلوّح ركابها بالأعلام اللبنانية، تنطلق على الجهة الأخرى المعاكسة. واختفى السرب كالرصاص.

ـ هل فكّرت يوماً بالذهاب إلى القصر يا فادي؟

ـ مطلقاً.

ـ هل تحبه؟

ـ أخاف منه!

ـ لماذا؟!

ـ لأنه يفقد أعصابه أمام الجماهير، ويعلن مواقف غير مسؤولة.

ـ الأفضل أن نفكر في بعد ظهرنا فقط.

ـ هل تريدين الذهاب إلى السينما بعد الغذاء؟

ـ فكرة جيدة. هناك فيلم يستحق المشاهدة في سينما «اسباس ۲۰۰۰».

انحرف فادي بسيارته يميناً من مفترق زوق مكايل، ثم يساراً تحت النفق إلى مستديرة الكسليك، وسألته تيرا قبل سلوك طريق المعاملتين إذا كان يرغب في الأكل في «الكاستيل»، حيث إنه قريب من السينما، وأجابها بأن شاطىء المعاملتين أفضل لمثل هكذا أناقة، ثم أن المسافة لن تستغرق أكثر من دقائق.

كان الطقس رائعاً، على الرغم من أنه اليوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني. وبدا المشهد من خلف الواجهة الزجاجية للمطعم ساحراً، حيث خليج جونيه بزرقته المتعددة الدرجات، تحيطه مباشرة مساحات شجر الصنوبر صعوداً حتى تمثال العذراء المشرف على الخليج من علوٍ يبلغ أربعمئة متر.

لم تشعر تيرا قبل دعوة الغذاء، أنها مخطوبة إلى فادي. ولم

تدرِ لماذا انساب هذا الإحساس في شرايينها فجأة. كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بالاسترخاء وهو معها. وقد دفعتها أحاسيسها الدافئة إلى الاستفسار منه عن أمر، طالما لم تجد له جواب.

ـ إذا سألتك سؤالاً خاصاً جداً، هل تجيبني بصراحة؟

ـ (وهو ينظر في عينيها العسليتين) هل هو خطر لهذه الدرجة؟

ـ خاص. خاص جداً.

ـ إسألي.

ـ لماذا لم تحاول أن تقبلني في الفترة الأولى؟

تنهد فادي ثم ابتسم ابتسامته الكبيرة تطورت إلى ضحك متقطع.

ـ لا تسخر مني، وأجب.

ـ لن أسخر، لكن الأمر محرج لك.

ـ انتظر جوابك، حتى لو كان كذلك.

ـ لاحظت في البداية إنك في حالة قرف من الرجال والحب.

ـ هذا صحيح.

ـ وبداهة فإن حالة القرف تولّد النفور.

ـ (وهي تنقر على الطاولة وتنظر إلى البحر) لا شك في انك ذكي.

انتبه فادي إلى أن الغرسون يقف بكل تهذيب على بعد

خطوات منهما، في المطعم شبه الخالي، وكأنه يحاول جذب انتباههما بهذه الوقفة. ابتسم فادي وغمز بعينه له:

ـ ماذا؟

اقترب الغرسون منه، وقال هامساً:

ـ آسف للإزعاج. أبلّغكما حتى تتدبرا أمركما إذا كنتما من منطقة بعيدة.

ـ ماذا. ماذا حدث؟ سأله فادي

ـ أُغتيل الرئيس رينيه معوض.

ـ الآن؟

ـ منذ دقائق.

ـ كيف اغتيل. إنه في مجلس الوزراء.

ـ بسيارة مفخخة بعد انتهاء الجلسة.

ـ شكراً.

تراجع الغرسون، وتابعه فادي بنظره إلى آخر المطعم. وابتسم، ونظر إلى تيرا وقال بكل سخرية:

ـ مثل مسلسل «مابيت شو» تماماً. تنتهي كل حلقة بحريق. والأفضل أن أعيدك الآن يا حبيبتي، ثم أذهب إلى المنزل. لا أحد يعلم ماذا سيحدث.

أنهيا أكلهما بسرعة، وأعادها إلى سيارتها في جل الديب. وكانا صامتين يستمعان إلى تفاصيل الحادث الرهيب من راديو السيارة. وعندما وصلا طبعت قبلة على خده، ثم توجهت إلى سيارتها وهي تقول: انتبه إلى نفسك.

ـ كنت أود أن تكون جلستنا طويلة اليوم.

عادت تيرا بضع خطوات وقالت: وأنا أيضاً. ربما أكثر منك. أسئلة كثيرة عندي أريد أجوبة عنها. ضحك فادي، وانطلق بسيارته.

وقعت كل المناطق اللبنانية في حيرة كبيرة بعد اغتيال الرئيس المُنتخب. هل تعود الحرب مرة أخرى؟ وكان رد النواب سريعاً، وانتخبوا زميلهم الياس الهراوي رئيساً.

عادت الحركة طبيعية إلى الشارع بعد أيام، والتلامذة إلى مدارسهم. وظل هاجس التصادم العسكري قائماً بين الرئيس الجديد المنتخب وساكن القصر الرئاسي، في قلوب كل سكان بيروت. ثم تحول هذا الهاجس إلى هاجس مسيحيي شرق العاصمة، خوفاً من تصادم الوحدات التابعة للعماد عون وميليشيا «القوات اللبنانية». لكن قائد الميليشيا صعد إلى القصر ذات مساءٍ، وأعلن منه أن ذلك الهاجس لا أساس له من الصحة، وانه والعماد سيقفان ضد أي قوة تحاول دخول المناطق المسيحية. وعلى الرغم من عدم تصديق الناس لما قاله، إلا انها كانت إشارة واضحة بأن فترة عيد الميلاد ومناسبة رأس السنة ستمران بسلام.

قبل ليلة رأس السنة، سأل ريمون فادي إذا كان يحب السهر في ملهى ليلي سيفتحه أحد معارفه.

ـ دائرة أصدقائك متنوعة حقاً.

ـ حتى لا أشعر بالملل.

ـ هل سنأخذ داني معنا؟
ـ وهل ذلك بحاجة إلى سؤال؟!
ـ أفكر باصطحاب تيرا. ما رأيك؟
ـ أولاً: سنراها لأول مرة. ثانياً: ستلطف أجواء طاولة تضم ثلاثة عساكر.
ـ (ضاحكاً) هل حياتك فعلاً تخلو حتى من صديقة؟!
ـ عندي. لكنها من المرجّح ان تسهر مع أهلها.
ـ اقنعها بالسهر معنا يا تيس.
ـ سأحاول.

سأل فادي تيرا إذا كان يمكنها أن تسهر معه ليلة رأس السنة. وشرح لها أجواء السهرة، وكيف أنهم سيشاركون في افتتاح ملهى صديق لريمون.

ـ إذا كان الملهى جيداً، فأسعاره ستكون مشجعة حتماً.
ـ ماذا تعني؟
ـ حوالى عشرة موظفين عندنا، وزوجاتهم طبعاً، يبحثون عن هكذا مكان.
ـ جيداً، اسأليهم لنحجز طاولات
ـ لم تسألني أهم سؤال.
ـ هل ستسهرين معنا، لكي يكون العام الجديد سعيداً.
ـ انني أشتاق فعلاً أن أرقص معك.
ـ «عندما أكون أنا هناك
ستكونين أنتِ معي

سوياً سنرقص
حتى الصباح
حتى يغرد العصفور
فرحاً بقدوم النهار
حتى تضحك الشمس
وتخاف جيوش الظلام
ستكونين أنت لي
الحياة والضياء».

نظرت تيرا في عينيه بتأثر، وسألته: من قال هذا الشعر؟ أجاب فادي: أنا، وسألته: قلته هكذا... أجاب: نعم قلته هكذا، ولا أستطيع أن أعيده. واقتربت هي من شفتيه وقبلته، وشعرت بدموعه تبلل شفتيها.

تجمعت سبع سيارات في ليلة رأس السنة أمام منزل تيرا. وعندما وصلت سيارة ريمون وفيها فادي وداني، نظر ريمون إلى فادي وقال له: إصعد لتُحضر البطلة. وصعد فادي إلى بيت تيرا لأول مرة، قلبه يسبق خطواته. وعندما وصل أخبرته أختها ـ وهي تتفحصه من أسفله إلى أعلاه ـ أن تيرا تضع اللمسات الأخيرة لماكياجها.

تحركت القافلة خلف سيارة ريمون إلى بيت مري. وجلس داني إلى جوار ريمون، وفي المقعد الخلفي فادي وتيرا. وقبل أن تغادر السيارة جل الديب سأل داني ريمون:

ـ هل يعلم قسم الطوارىء مكانك الليلة ورقم الهاتف؟

ـ كلا. لماذا؟

ـ لأننا نذهب بسيارتك، وحتى لا تفسد سهرتنا!

ـ يا خبيث! أنا صاحب الفكرة.

ـ ما بيسألش عليا أبداً ولا بتشوفه عنيا أبداً

ـ ماذا تقول يا داني؟!

ـ إنه يغني يا ريمون، كأنك لا تعرفه. على الأقل إنها أفضل من أغنية «المسمار». قال فادي.

ـ معك حق، خصوصاً هذه الليلة. رد ريمون

ـ هل تفهم تيرا هذه الألغاز. سأل داني وهو ينظر في مرآة السيارة؟

ـ نعم. لقد شرح لي فادي هذه اللغة الخاصة. قالت تيرا.

قضى الأصدقاء الخمسة سهرة رأس سنة ممتعة فعلاً. وعلى الرغم من عدم وجود برنامج في الملهى الليلي ـ لأن صاحبه قرر افتتاحه قبل أيام فقط ـ إلا أن الأشخاص الموجودين والموسيقى كانوا البرنامج. استمتع الجميع في المكان الصغير، ذي الديكور الخشبي الموحي بالدفء، المُزين بأدوات مطبخ مكبرة جداً نسبة إلى حجمها الحقيقي، والإضاءة الموزّعة بشكل مريح.

تعمّدت تيرا أن تلصق الكرسي الذي تجلس عليه، بكرسي فادي. وكان تلامس كتفيهما لغة بحد ذاتها، غير لغة حاسة

الشم التي جعلته ينتشي بعطرها. وكانا ينتهزان فرصة خلو الطاولة من الأصدقاء، للهمس بحديثهما الغرامي.

- هل تعلم أن الإضاءة الخافتة تجعلك أكثر وسامة؟ سألته تيرا

- أكثر وسامة تعتبر أفضل من أكثر إثارة.

- لماذا؟

- لأنني أخشى حدوث ما حدث يوم «الراجمة».

- ألهذه الدرجة أنا مثيرة اليوم؟

- لدرجة العزف على أوتار جسمي بالكامل. وأنتِ؟

- أحس بأنني لا أريد العودة إلى منزلي.

- هل تحبين الرقص؟

- عند أول معزوفة هادئة. لا تنسى.

- إنني أنتظر.

أظهر داني مقدرة مذهلة فعلاً، كرجل بيع وعلاقات عامة، على كسب ودّ الناس، لأن معظم الموجودين كان يناديه باسمه بعد ساعة، ويرسل النكات له عبر الطاولات، كما يفعل هو. وكان أيضاً يرفع كأسه ويشرب نخبهم. ومن بعد رفع صوته:

- كأس أجمل فتاة وأحلى شاب. قال داني لفادي وتيرا.

- كأس صداقتنا. قال فادي

اتجه داني إلى حلبة الرقص، ورفع إبهامه الأيسر أمامه، في إشارة إنه سيرقص معه. ورقص فعلاً بين تصفيق الحضور

وصفيرهم، رقصة عجيبة، لا شرقية ولا غربية، ولا حتى آسيوية.

ـ أخبرتني عنه، لكن هو بحد ذاته أكبر من أي وصف. قالت تيرا لفادي.

ـ لقد أذهلني الليلة فعلاً. لم أره كذلك من قبل.

ـ هل تعلم إنه حزين مثلك.

ـ حزين؟ لا أفهم كلمة حزين.

ـ حزن وجودي، ليس حزن مواقف.

ـ إنسِ الوجود الليلة، ودعينا هنا.

جاءت منى من الحلبة، ثم تبعها داني وأخيراً ريمون الذي كان جلساً على مقربة منهم يتحدث.

ـ أتمنى أن تكونوا مبسوطين. تساءل ريمون.

ـ كثيراً، ردّت منى

ـ المكان شاعري جداً. قال داني ساخراً.

ـ أين تعلمت هذه الرقصة يا داني؟ سألته تيرا

ـ (ضاحكاً) إنني متعدد المواهب.

انتصف الليل وأُطفئت الأنوار، وتبادل المحبون والمتزوجون القبلات، وقبّلت تيرا أُذن فادي وتعمدت نفخ أنفاسها فيها. أما هو فقبّل يدها. وتمنى الحاضرون التمنيات بعام جديد سعيد.

ـ هابي نيو يير ريمون.. هابي نيو يير داني. قالت تيرا.

ـ نراكما عريسين السنة القادمة. قال داني.

ـ بل هذه السنة. لقد بدأت منذ لحظات. صحح له ريمون.
ـ أين منى؟ سألت تيرا.
ـ إنها آتية من الحلبة.
ـ ما شاء الله. إنها ترقص كحصان عربي أصيل. قال ريمون.
ـ هل تصدق أنها كانت تنوي السهر الليلة في القصر؟ قالت تيرا.
ـ مع الـ. . . .؟ ولم يكمل ريمون، بل فتح فَاهَهُ دهشة.
ـ نعم، بعض المهووسين به لا يتركونه.

همس ريمون في أذن داني عما إذا كان من الممكن أن يرقص مع إصبعه. ووافق الساخر الكبير، وقاما بحركة تمثيلية توحي بأنهما غريبان عن الطاولة، وقد جلسا بطريق الخطأ. وعندما وصلا نادى داني فادي بحركة من يده، وقام الأخير وانضم إليهما.

رقص الأصدقاء الثلاثة بشكل أداء تمارين رياضية، وبدا واضحاً أن أحدهم لا يتقن الرقص الغربي. لكن صودف أن الأغنية التالية كانت للمطرب المتوسطي ديميس روسس، وإذ بالأصدقاء يغيّرون الحركات الرياضية إلى الدبكة اللبنانية، وكان الأرتباط بين اللحن ورقصهم مذهلاً.

بينما كان فادي عائداً إلى الطاولة، استوقفته تيرا في منتصف الطريق وأخبرته أن الأغاني الهادئة قد حان وقتها.

وفي الحلبة سألته إذا كان يذكر الشعر الذي قاله، وأجاب انه يذكر المعنى فقط، وطلبت منه أن يقول المعنى، لأنها تحب سماع شيء عاطفي بصوته.

ـ هل رأيتِ الوشم على جلد إنسان؟

ـ نعم. قالت له

ـ وهل رأيته على روحه؟

ـ لا.

ـ إنه لا ينهت.

ـ يبدو أنك على وشك أن تترك عملك بالكمبيوتر قريباً.

ـ بدأت أحسد داني لأنه يبيع العطور.

ـ وأنا بدأت أشعر بالخوف.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لم أعد أتحكم بلساني وجسمي مثلما كنت سابقاً.

غادر الأصدقاء الملهى عند الواحدة والنصف تقريباً، وأوصل ريمون تيرا أولاً، ثم منى التي عادت معهم. ورجع من زوق مصبح إلى الأشرفية ليوصل داني، ونزل داني من السيارة وقال لفادي:

ـ الرجل الذي يجلس بجانبي شرب عصير برتقال طوال السهرة.

ـ أحدنا كان يجب أن يكون واعياً، يا خبيث.

ـ يا فادي، عندي زجاجة ويسكي رهيبة. وأنا دائماً احتفل حتى الفجر. ما رأيك أن تشاركني الاحتفال برأس السنة اليوم؟

ـ وما المانع؟ قال فادي. (ثم وهو يهم بمغادرة السيارة) كل سنة وأنت بخير يا ريمون.

ـ هل ستسكران حتى الفجر فعلاً؟

ـ حتى نرى النجوم وهي تودع السماء. قال فادي.

ـ ولماذا لا يذهب حضرة العاشق والراقص مع إصبعه لنسكر سوياً. على الأقل، منزلنا أكبر وأبي نائم.

ـ فكرة رائعة، خصوصاً أن طبيباً ذا ضمير سيكون معنا. قال داني.

ـ إنسَ الطب الليلة، واصعد إلى السيارة. قال ريمون.

ـ موسيقى... موسيقى ناعمة. فتّش عن محطة تبث موسيقى. قال داني.

ـ المفترض أن يقول هذه العبارة فادي وليس أنت. أليس كذلك؟

ـ هل تصدق أنني لا أعرف الفرح سوى في الأعياد. ردّ داني.

ـ أمر عظيم فعلاً، لأن الناس لا تعرف سوى الأكل والشرب في الأعياد. قال ريمون.

أطفأ ريمون أضواء سيارته بمجرد الدخول إلى كفرشيما، ومشى بأبطأ سرعة ممكنة. وقال داني لفادي:

ـ هذا هو السبب الثاني الذي يجعله لا يشرب كحوليات.

* * *

اتفق فادي وتيرا على أن يزورها في منزلها بضع مرات، ليصبح معروفاً لأهلها، وتأتي أمه بعد ذلك وتطلب يدها لابنها رسمياً. وكانت أول زيارة له في الأحد الأخير في شهر كانون الثاني ١٩٩٠. زيارة عادية لم يلمِّح هو فيها بأي شيء، حسب إرادة تيرا. لكن أختها لم تقتنع بأن هذه الزيارة لا تحمل أي معنى.

ـ أليس هو نفسه الذي صعد إلى هنا ليلة رأس السنة؟

ـ لم أعد أذكر!

ـ أنا أذكر. هو نفسه. وسيم فعلاً، ويبدو أنه يحبك.

ـ حتى الآن هو صديق مخلص.

ـ لا أحد يعلم كيف تتطور الأمور.

ـ صحيح. ولا أريد استباق أي خطوة.

والتقى فادي وتيرا مساء اليوم التالي، لتقويم أجواء زيارته الأولى في منزلها.

ـ كانت زيارتك مريحة لأمي وأبي.

ـ وأيهما كان أكثر ارتياحاً؟

ـ أمي. أنا فعلاً سعيدة، لأنهما يرتابان كثيراً من شبان هذه الفترة.

ـ الحق معهما. واختك؟

ـ مقتنعة تمام الاقتناع أنك تحبني.
ـ لا أعرف لماذا الإصرار على التكاذب في هذه المواقف.
ـ ماذا تعني؟
ـ أعني لماذا أربع أو خمس زيارات تمهيدية، قبل الكلام في الموضوع الرئيسي.
ـ أظن أن الناس بشكل عام يكذبون وينافقون ويتملّقون.

سعى فادي منذ أول العام الجديد، لإيجاد عمل آخر موازٍ لعمله حتى يضاعف دخله، استعداداً للخطوة التي سيقدم عليها، وكاد سعيه أن ينتهي بالتوفيق، لأنه أخبر تيرا عن موعد مساء الثلاثاء مع صاحب مؤسسة جديدة سيعمل فيها، للاتفاق على تفاصيل العمل والمعاش.

ـ وهل ستتمكن من الجمع بين الوظيفتين؟
ـ الوظيفتان دوامهما يرتبط بالإنتاج، وليس بعدد معين من ساعات العمل.
ـ وإذا عرفوا في شركتك الأولى؟
ـ البلد في فوضى، فلماذا يُطبق القانون عليّ فقط؟

كان المعاش المتفق عليه مغرياً، لدرجة أن فادي قرر بينه وبين نفسه، أن يترك شركته الأولى بعد أول ثلاثة أشهر للاختبار. أحس وكأن الظروف من حوله تتبلور، لتصب في مصلحة الزواج المقدم عليه. وأخذ يحسب ليلة الثلاثاء ما

سيجنيه من نقود، ويقارنها بالمدة التي يمكنه فيها أن يتزوج. ووجد إنه يستطيع الزواج في المنزل مع أمه بعد سنة ونصف. ثم ينتقل بعد هذه الخطوة إلى أخرى يستقل بعدها في منزله بعد سنة ونصف أخرى. وكان تقديره أن تيرا ستوافق على هذه الفكرة، خصوصاً أن الفترة الثانية يمكن أن تتقلص، بفضل معاشها الذي سينضم لمعاشه بعد الزواج.

في العاشرة من صباح الأربعاء، ذهب فادي إلى موعد لفحص كمبيوتر في حي السفارات بالحازمية. ولاحظ من خلال الزجاج، انتشاراً كثيفاً للجيش اللبناني الذي وضع حاجزاً في بداية الحي. نزل فادي إلى الشارع وسأل أحد العناصر عن أفضل شيء يمكن أن يفعله. وكان رد الجندي عندما عرف أن فادي ليس من سكان الحي، هو العودة إلى منزلة بأقصى سرعة.

رجع فادي إلى المكتب ووضع أغراضه في حقيبته، واتصل بتيرا طالباً منها العودة إلى منزلها.

ـ الآن؟

ـ الآن.

ـ لماذا؟

ـ الحالة الأمنية ستسوء جداً.

ـ انتبه إلى نفسك.

ثم اتّصل بابنة عم أمه في منطقة نهر إبراهيم، شمال بيروت، وتكلم مع أمه التي تصادف وجودها هناك لمدة ثلاثة

أيام، وطلب منها أن تستمر عندهم حتى يتبين ما يحدث على الأرض.

ـ «القوات اللبنانية» تنتشر بكثافة هنا. قالت أمه.

ـ أمر رهيب فعلاً. سأذهب إلى أبي ريمون بعد الظهر، لأن عين الرمانة ليست مكاناً آمناً.

ـ الله يكون معك. لا تتحرك كثيراً.

ـ حسب...

لم يكمل فادي جملته، لأن الخطوط الهاتفية انقطعت، وهو ما ينذر بحدوث أمر كبير، حسب خبرة المواطنين خلال الحروب اللبنانية. وركب سيارته واتجه من حي السفارات إلى مستديرة دار الصياد. وعندما وصل اكتشف أن الجيش قد حوّل السير من مفرق جسر الباشا إلى مستديرة المكلس، وقطع الطريق نزولاً إلى عين الرمانة، التي كانت منذ بداية الأحداث تحت سيطرة الميليشيات المسيحية المختلفة.

أدرك فادي أن الوصول إلى بيته مستحيل، لذلك غيّر طريقه واتجه صعوداً إلى اليرزة حيث وزارة الدفاع، ومنها اتجه إلى بعبدا التي كان انتشار الجيش فيها كثيفاً جداً، ثم اتجه نزولاً إلى سبنيه، ومنها إلى كفرشيما.

ـ أظن أن وصول ريمون من الأشرفية أمر صعب جداً.

قال فادي لأبي ريمون محاولاً أن يطمئنه. وسأل الرجل:

ـ ماذا يحدث على الأرض يا فادي؟

روى فادي له كيف أنه لم يستطع الوصول إلى بيته من الحازمية، وكثافة الجيش على مفاصل الأحياء، وكيفية تحويل السير عن المناطق الواقعة تحت سيطرة «القوات اللبنانية» عملياً.

- ماذا يريد العماد عون... محاصرة مناطق «القوات اللبنانية»؟ سأل أبو ريمون.
- لا أعلم. والمشكلة هي عدم مقدرتي الوصول إلى منزلي.
- من أجل ماذا؟ سأل أبو ريمون، وأجاب بدلاً من فادي.
- من أجل الثياب والنقود؟ أنت هنا في منزلك.
- أعلم يا عم. لكن عقلي مشغول أيضاً على أمي.
- وأين هي، أليست في المنزل؟
- إنها عند قريبة لنا في منطقة نهر إبراهيم.
- مكان آمن في الوقت الحالي. ماذا تريد أن تأكل؟
- ماذا طبخت اليوم؟
- حتى الآن لم أطبخ، لأنني اليوم سأطبخ للنصف الثاني من الأسبوع، هل تعرف الطبخ؟
- أعرف المساعدة، وليس الطبخ.
- إذاً ساعدني في تقشير البطاطا، وغسيل اللوبيا، وقص البصل. سأعود بعد دقائق، ولا تنسى تحضير كذا حص ثوم.

بدا واضحاً من الأخبار أن المناطق المسيحية متجهة إلى أزمة كبيرة داخلها. واتضحت نوعية الأزمة بعد إعلان العماد عون عن توحيد البندقية بين وحداته وبين «القوات اللبنانية»، وإعادة تأهيل عناصر الأخيرة، ورفض الميليشيا لهذا الطرح من أساسه.

رجع أبو ريمون ومعه بعض اللحمة للطبخ. وسأل فادي عما إذا كان يسمع ما يقال في الراديو، وتساءل:

ـ هل ينويان ـ العماد وقائد الميليشيا ـ تكسير المنطقة المسيحية فوق رؤوسنا؟

ـ لا أظن أن الأمور ستسوء إلى هذه الدرجة. لا بد وأن يتدخل البطريرك صفير.

ـ هل تظن ذلك حقاً؟ فكرتك ذكية.

ـ هذا هو الأمل الأخير.

سكت العجوز لحظات، وجمد في مكانه، ثم قال بعد صمت وتفكير.

ـ التاريخ يقول إن الحروب دائماً تبدأ باسم يسوع، ولم يقل إنها توقفت عن الاندلاع باسمه.

ـ أنت أكثر اطّلاعاً مني.

ـ هذان الشابان سيكسران المنطقة فوق رؤوسنا.

بينما كان أبو ريمون وفادي يشربان القهوة، ويستمعان إلى نشرات الأخبار من المحطات المختلفة و«الفلاشات الأمنية» بعد الظهر، سمعا صوت سيارة تدخل إلى حرم البناية،

وأطل أبو ريمون من بين الستائر.

ـ ما هذا؟ سيارة إسعاف الصليب الأحمر؟

انطلق العجوز والشاب نحو الباب وفتحه أبو ريمون وتبعه فادي. وقبل أن يتمكن أحدهما من نطق أي عبارة، فُتح الباب الخلفي للسيارة ونزل منه ريمون وداني الذي كان يحمل حقيبة متوسطة الحجم. وقال ريمون للسائق:

ـ شكراً يا محمود. إنزل لأعرِّفك بأبي وصديق لنا.

ـ وصافح السائق أبا ريمون وفادي واستأذن بالذهاب، وحاول أبو ريمون أن يستبقيه لفنجان قهوة، لكن الشاب اعتذر بضيق الوقت، ثم شكره ريمون مرة أخرى، فقال محمود وهو يشير إلى إشارة الصليب الأحمر على سيارة الإسعاف:

ـ إنه باسبورنا بين المجانين.

وعندما أصبحت سيارة الإسعاف خارج سور البناية سأل أبو ريمون ابنه.

ـ هل يوجد مسلمون في جمعية الصليب الأحمر في مناطقنا؟

ـ أكثر من ٣٠٪ من مقاتلي العماد عون مسلمون، وشيعة تحديداً. ردّ عليه داني.

ـ من أين تأتي بهذه المعلومات يا صبي؟ تساءل أبو ريمون.

ـ من جنود العماد. أجاب داني.

ـ المهم، لماذا أتيتما بسيارة الصليب الأحمر؟
ـ لأنه يستحيل على أي سيارة عادية أن تتحرك بأمان.
بصراحة، داني هو الذي شجعني على الحضور، وهو صاحب فكرة سيارة الإسعاف، وأنا الذي نفذت، لأنني أعرفهم. قال ريمون.
ـ ألهذه الدرجة؟ تساءل فادي.
ـ الطرقات خالية والحالة مرعبة فعلاً. قال ريمون.
ـ العماد عون ينوي الهجوم على ثكنات «القوات اللبنانية». قال داني.
ـ مجنون. قال أبو ريمون.
ـ إنهم يحضّرون أنفسهم ليصبحوا «جيش الدفاع المسيحي» منذ سنة سيقاتلونه كجيش فعلاً. أين مخابراته؟ قال داني.
ـ وهل تعتقد أنه يستمع إليهم؟ سأله ريمون.
بدا واضحاً أن المنطقة المسيحية الواقعة ما بين منطقتي المدفون شمالاً إلى كفرشيما جنوباً، قد قُسِمت إلى جزر، عونية وقواتية، وكل جزيرة أغلقت حدودها أمام الجزيرة الأخرى، وبقي الربط ما بين الجزر وضمها للأقوى على الأرض.
وظلت حالة الترقب والتراشق سائدة بين الطرفين، حتى الثالث من شباط، حيث استفاق الناس على أصوات مدفعية رهيبة تصب من كافة المناطق العونية فوق عين الرمانة، التي

سقطت أمام وحدات العماد عون العسكرية في السادسة إلاّ ثلثاً صباحاً.

ـ أين ذهبت القوة المخيفة لدى «القوات اللبنانية»؟

تساءل أبو ريمون بينما كان ذاهباً إلى المطبخ لعمل القهوة.

ـ هل ماتوا جميعاً أم أُسروا؟ تساءل داني وهو في حالة ذهول.

ـ سنعرف هذا اللغز قريباً، لكن المهم أن الرجل ربح عين الرمانة بأقل خسائر ممكنة. قال ريمون.

ـ هل تظن ذلك؟ تساءل فادي بقلق بالغ، وهو يدخن سيجارة من سجائر أبي ريمون.

ـ المعركة لم تستغرق أكثر من ساعة. لماذا تدخن يا فادي؟ قال ريمون.

ـ لأنني في قلق بالغ فعلاً.

وأثناء احتساء القهوة، تناقلت إذاعات أخرى الخبر، ما أكّد سقوط عين الرمانة فعلاً، التي انسحبت منها عناصر الميليشيا عن طريق الشياح إلى الأشرفية.

ـ ماذا؟ قال أبو ريمون مصدوماً.

ـ ماذا... ماذا. هل أنت حزين عليهم؟ سأله داني.

ـ «جيش الدفاع المسيحي» ينسحب من أمام العماد عون عبر منطقة إسلامية يحكمها «حزب الله» و«ميليشيا أمل» إلى الأشرفية، وتسألني ماذا... ماذا.

وجم الشبان الثلاثة وردّوا سوياً: معك حق. كيف حدث ذلك؟

سقطت منطقة الضبية شمال بيروت ـ وهي المنطقة المتاخمة لجل الديب حيث تسكن تيرا ـ بعد وقت قليل من سقوط عين الرمانة، وإن ظلت راجمات «القوات اللبنانية» تقصفها من الأشرفية لمدة ثلاثة أيام. وكانت الأشرفية هي المنطقة الوحيدة في بيروت التي لم يحاول جنود العماد اقتحامها، على الرغم من توقع كل الناس لذلك بعد سقوط عين الرمانة.

بعد سقوط عين الرمانة والضبية، وانسحاب مغاوير العماد عون من منطقة أدما في كسروان، إضافة إلى تسليم ثكنة صربا وموقع البحرية في جونيه بكسروان. وصلت سلسلة الحروب اللبنانية إلى خطوط تماس جديدة بين المسيحيين أنفسهم، إضافة إلى خطوط التماس القديمة التقليدية. بينهم وبين المسلمين والدروز.

الخسائر التي شاهدها الناس على شاشات التلفزيون كانت فادحة، لأن الميليشيات تعمدت حرق الأرض التي تتركها، إضافة إلى قوة النيران الكثيفة من الطرفين، نسبة إلى ميدان قتال قائم بين البيوت.

خرج الناس من الملاجىء، وعاد الذين هربوا من عند أهلهم وأصدقائهم من الضيع البعيدة، لتفقّد أملاكهم وأرزاقهم. واستقبلت أم فادي ابنها بلهفة وقبلات ودموع،

في منزل ابنة عمها في منطقة نهر إبراهيم، لكنها انتبهت بسرعة إلى الوجوم الذي قابلها ابنها به.

ـ ماذا بك؟

ـ طبعاً، ذهبت إلى عين الرمانة قبل المجيء إلى هنا.

ـ هل أصيب المنزل؟

ـ حدث أسوأ.

ـ احترق؟

ـ نسفه عناصر من «القوات اللبنانية» قبل انسحابهم.

ـ لماذا؟ ماذا قال الناس في الحي؟

ـ تفاسير كثيرة.

ـ أظن أن جوزيف حداد، في الطابق الثالث، هو السبب. كان يستقوي عليهم أخيراً بعناصر من الجيش.

ـ ماذا سنفعل الآن بعد هذه الكارثة؟

ـ لا كارثة ولا شيء. فداءَ لحذائك!

عرضت ابنة عمها عليها المكوث في منزلها، لكن أم فادي وابنها شكراها. ثم ذهبا إلى مأوى العجزة في عين الرمانة، عسى الأم الرئيسة، وهي صديقة أمه، تجد لهما حلاً. وكان الحل هو غرفة يستأجراها داخل المأوى، حتى يأتي الله الرحيم بالحل.

وعاد فادي إلى عمله بعد تسعة عشر يوماً من بداية الحرب الأخيرة، وهو محكوم بالقواعد الجديدة التي أصبحت تحكم

المنطقة المسيحية، إضافة إلى الواقع المفجع الذي أصابه شخصياً.

وعلى الرغم من أن تيرا تأثرت فعلاً بما حدث لمنزله، إلاّ أن ما أصابه هو شخصياً من اهتزاز وارتباك، جعلها تتأثر أكثر.

- أنت قادر على تخطي الأزمة.
- أصبحت الحياة هنا سلسلة أزمات.

وما قالته تيرا، كرره أصدقاؤه له.

- تتعامل مع المنزل وكأنه إنسان قد مات.
- المشكلة إننا لم نخسر المنزل فقط.
- ما هي إذاً؟
- أمي امرأة ريفية تؤمن أن النقود التي في المنزل أقرب وأنفع من التي في المصرف!
- إنسَ خسائرك كلها. معظم الناس من دون منازل أو نقود.
- المهم أن يعيش الإنسان.

كان عمق الألم عند فادي، هو انهيار الحلم الذي قد بدأه قبل أيام من المعركة الشرسة بين المسيحيين أنفسهم. والخسائر التي جعلته يحس بأنه أقل من الناس، وانه عاجز أمام فتاته، على الرغم من أنها لم تطالبه بشيء.

أحس بأنه يتيم مرة أخرى بوجوده داخل هذا المأوى. وأنه يعيش من دون معين في الحياة أو في السماء، لأنها لم تكن

موجودة عندما هاجمته الوحوش.

- أين ذهب قديسوك وصورهم؟ قال لأمه.

- إنهم موجودون.

كانت حدة التقاصف بين المتقاتلين تخف أيام الآحاد، التي تتتابع في طقوس الصيام المسيحي. ومن المؤكد أن مدافع عون وجعجع سكتت تماماً في الفترة ما بين أحد الشعانين وأحد القيامة.

وذهبت جموع غفيرة إلى العماد لتهنئته بالعيد في قصره، وترجوه أن يمشي على جثثهم وبيوتهم، شرط أن يحلّ ويُنهي هذه الحرب التي قصمت ظهورهم. ووعدهم بالحل بعد الأعياد، فناموا مطمئنين إلى أنه يستجمع قواه للانقضاض على الميليشيا.

لكن العماد ظل على سياسة التراشق، وصد هجومات الميليشيا الانتحارية عليه وتكبيدهم خسائر فادحة، إضافة إلى خسائره وخطبه النارية من شرفة القصر.

* * *

بدأ شعور مختلف يتشكل داخل فادي، عند عبور النقاط الفاصلة بين البيروتين، أو التواجد في الشطر الغربي من العاصمة. فقبل الاقتتال الأخير داخل الشطر الشرقي، كان يحس بوطأة تغيير المناطق عندما يعبر المعابر باتجاه غرب بيروت وبالعكس.

كان يحس بالأمان أكثر في شرق العاصمة. أما الآن فقد

انتقل إحساس الأمان داخله، عند وجوده في المنطقة الغربية. كما لاحظ، من خلال تنقله، أن أعداداً أكبر من الناس كانت تتحرك بين شطري العاصمة أكثر من قبل. ما انعكس إيجاباً عليه، وجعله يتمشى أو يشتري بعد الانتهاء من عمله، بدلاً من العودة بسرعة.

سأله الناس في غرب العاصمة كثيراً عن الأوضاع في شرقها. وكانوا يندهشون ـ حسب ما قالوا له ـ من سقوط بعض القذائف عليهم، على الرغم من أنهم ليسوا طرفاً في الاقتتال. أحس ان القاعدة الشعبية تميل بحبها نحو العماد في غرب العاصمة. وفسر هو ذلك باشتياق الناس إلى الشرعية، بعد حكم الفوضى والميليشيات لمدة خمسة عشر عاماً.

وذات يوم كان فادي في «دار الفينيق» منهمكاً في تصليح أحد أجهزة الكمبيوتر، وأحس فجأة بوجود شخص آخر يقف أمامه في الغرفة غير الموظفين الموجودين. رفع فادي رأسه من خلف الشاشة ليجد رجلاً سبعينياً، طويلاً، نحيفاً، منتصب القامة عكس من هم في مثل عمره، يكلل الشيب شعر رأسه كله، ومعظم شعر حواجبه. كان الرجل يقف بهدوء، وكأنه ينتظر انتباه فادي لوجوده.

ـ صباح الخير يا أستاذ فادي. قال الرجل بهدوء واحترام.

وبناء على الانطباع الأول لدى فادي، رد عليه:

ـ صباح الخير «شيخ».

ـ هل يمكنك المرور إلى المكتب، بعد الانتهاء من عملك؟

ـ من دواعي سروري.

عاد «الشيخ» إلى مكتبه بالخطوات نفسها التي لا صوت لها، تماماً كما جاء. وعند انتهاء فادي من عمله، نبّهته المحاسبة إلى أن «الشيخ» ينتظره. واندهش فادي من تكرار الطلب، وذهب إلى مكتبه وهو لا يشك لحظة في أن دار النشر ستستبدل شركتهم بشركة كمبيوتر أخرى للصيانة والبرمجة.

دخل فادي، بعدما دق الباب استئذاناً، ونهض الرجل الجالس خلف مكتبه يطالع الجريدة، ومد يده مصافحاً، وصافحه فادي.

ـ تفضّل.

جلس فادي وطلب «الشيخ» له فنجان قهوة بالتلفون.

ـ هذه أول مرة أتشرف برؤيتك فيها.

ـ وأنا يسعدني اللقاء بالشخص الوحيد الذي يأتي إلينا من المنطقة الشرقية.

ـ آتي لأن لا شأن لي بالأحزاب أو الميليشيات

ـ لكنها مجازفة على أي حال.

ـ المجازفة نفسها موجودة هناك.

ـ ما هذا الجنون الذي يحدث عندكم؟

ـ بل أكثر. جنون وخراب.

ـ هل أصابك شيء منه؟
ـ هبطت البناية التي نسكن فيها بكاملها.
ـ أمر موجع جداً. وعقلك؟
ـ أضراره طفيفة حتى الآن.

دخلت فتاة تحمل صينية عليها فنجان قهوة، وبينما كانت تضعها، لاحظ فادي أن المكتب الذي يجلس عليه «الشيخ» خالٍ تقريباً، إلاّ من بضع أوراق وقلم وتمثال صغير لثلاثة قرود تجلس متقاربة، وقد وضع القرد الأول يديه على فمه، والثاني على أذنيه، والثالث على عينيه.

حكمة شرقية قديمة يستخدمها من تضرر ضرراً بالغاً، أو مَنْ يخاف وقوع شر: لم أتكلم... لم أسمع... لم أرَ.

غادرت الفتاة الغرفة، وتابع فادي سماع الرجل ورؤيته بزاوية أخرى تُكمِّل تماماً ما سمعه منه.

ـ أنا أقرأ الصحف، لكن قلبي فاض بما أقرأه، فأحببت أن أتكلم مع شخص من «هناك». قال الشيخ.
ـ الموضوع أكبر مما يحتمله أي عقل.
ـ ما هو الهدف؟ أن يصبح أحدهما «مختار الضيعة» لفترة قصيرة.
ـ هل تظن أن الفترة قصيرة؟
ـ هذا ما يبدو لي. المهم. ماذا فعلت أنت بعد الذي حدث؟

ـ قدّمت طلب هجرة إلى ألمانيا.
ـ وهل تقبل ألمانيا طلبات هجرة الآن؟
ـ لسكان شرق بيروت، نظراً إلى ظروفهم الحالية.
ـ أمر مؤسف فعلاً. كان البلد ملجأ للخائفين.

وبعد فترة صمت قال فادي:

ـ سمعت الكثير عنك.
ـ أصبح هدفي الآن مجرد استمرار هذه المؤسسة. لقد نسيت تماماً ما سمعته أنت عني.
ـ هذه بطولة.
ـ إنه مجرد تمرين عقلي. كان أمامي خياران: الإصابة بالجنون أو الاستمرار بما بقي.
ـ ألم تفكر..

واستدرك فادي في لحظة أن أمر السفر قد لا يعني «الشيخ». ولم يكمل عبارته. لكن الرجل ذو الخبرة فهم ما قصده فادي.

ـ نعم، فكرت أن أعود إلى أميركا الجنوبية. لكن بعد كل ما حدث، ما جدوى السفر أو البقاء. الربح أو الخسارة.
ـ وأولادك؟
ـ ناجحون في أعمالهم الخاصة. وهذه المؤسسة أعتبرها ابنتي التي ألتزم نحوها التزاماً معنوياً، طالما أنا على قيد الحياة.

ـ هل أنت مرتاح في التعامل مع مؤسستنا؟
ـ من دون أدنى شك.

غادر فادي دار «الفينيق» وشريط اللقاء يدور في رأسه. العجوز الصامد كسنديانة تواجه تقلبات الرياح، التي نجحت في إلحاق الضرر بالأغصان، لكنها لم تستطع قلعها. وكيف أنه هو نفسه مشغول بحدث يتم بعيداً عنه، وفي أرض غير أرضه، على الرغم من أنه ـ ظاهرياً ـ ابتعد عن الحياة العامة وانزوى، حتى داخل مؤسسته، التي يديرها أناس يثق بهم، ويديرهم وهو في الظل.

أي ألم هذا الذي يجعل إنساناً يعيش بمثل هذا الأسلوب. وجع هو أم اكتفاء وقناعة وصل إليهما. هل تجعلنا الحياة أحياناً في حالة قرف من الأحياء، لدرجة إغلاق الحواس الخمس أمام البشر الذين لا نعرفهم، ما عدا الاطلاع والمشاهدة التلفزيونية، حيث أنهما ينقلان صوراً فقط.

خواطر عبرت رأس فادي، وجعلته يشعر أن حجم دماغه أصبح مثل المحيط.

المحيط... البحر... الصيف...

اختار فادي وتيرا مسبح «غولدن بيتش» للذهاب إلى البحر، لموقعه المتوسط بين مكان سكنه الجديد ومنزلها. فالمسبح يبتعد عن منزلها دقيقتين بالسيارة، ما يجعلها غير مضطرة إلى عبور معابر في ذهابها وعودتها. وكان هو يتجه إلى الأشرفية أولاً، ثم إلى منطقة الدورة التي كانت خط تماسٍ

بين المتحاربين، وبعدها إلى موقف السيارات المتفق عليه بينهما في جل الديب، حيث ينتظرها وتترك هي سيارتها، ويذهبان بسيارته إلى المسبح.

كان «غولدن بيتش» في هذه الفترة، هو مرفأ وحدات العماد عون البحرية المتبقية، لأن القاعدة البحرية في جونيه أصبحت تحت سيطرة «القوات اللبنانية»، كذلك منطقة الدورة والأشرفية المطلة على البحر بامتداد واحد.

المشهد داخل المسبح كان فريداً، السابحون والسابحات في البحر أو في بركة السباحة، والجنود بينهم. لم يكن هناك أي مذاق للمصيف، سوى طعم ماء البحر المالح، ورطوبة الصيف وحرارته، والخطر المحدق بالسابحين الذين كانوا فعلاً داخل ثكنة عسكرية بحرية موقتة، تعرضت للقصف مرات عدة، وطالما هرول الناس عائدين إلى بيوتهم، لأن مناوشات قد بدأت، أو وقعت بعض القذائف في الجوار.

على الرغم من هذه الأوقات العصيبة، وصعوبة المشوار نفسه للوصول إلى المسابح والعودة منها في ذلك الصيف الدامي، كان الناس يذهبون للترويح عن أنفسهم، والهروب من البيوت والاستمتاع بالشمس والبحر والنور.

وكان فادي يذهب إلى البحر لأن تيرا تريد ذلك. وهي في الحقيقة كانت تريد أن تُخرجه ـ ولو للحظات ـ من الجمود والانتظار الذي يعيشه. لكن لا البحر ولا الشمس ولا النور، ولا حتى تيرا ضو كانوا قادرين على إخراجه من

الجمود الذي سيطر على حواسه ومشاعره. غابت حتى شبه الابتسامة الساخرة، التي كانت تبدو أحياناً على شفتيه.

ـ هل من جديد بشأن الهجرة؟

ـ طالت الفترة أكثر من شهرين، وأخشى أن يكون مصيرها مثل مصير طلب داني.

ـ أظن أن وضعك أفضل منه.

ـ تقصدين أتعس.

ـ أنت شيخ الصابرين، وسوف تشرق شمسك من جديد.

ـ أفضل تعزية سمعتها حتى الآن، شيخ الصابرين، هذه.

ـ أود أن أقول بطل، لكنني أخشى أن تفهمها خطأ.

ـ هل تعلمين أنك الكائن الوحيد في الحياة الذي يمكن أن يبكيني؟

ـ لماذا لا تقول يشد عزيمتي.

ـ حتى العزيمة فترت.

ـ كنت دائماً أرى نور الإيمان في عينيك عندما تتحدث عن الغد.

ـ (مبتسماً لأول مرة منذ فترة) وحل محلّه انتظار موافقة الهجرة؟

ـ ولماذا تنظر إليها على أنها كارثة؟

ـ ستبعدني مضطراً عن وطني.

ـ فادي! ما هذا الكلام الفارغ؟ أي وطن تتحدث عنه؟

لو كانتْ تيرا قد ألقت قنبلة عليه في تلك اللحظة، لما استطاعت أن تشظّيه، وتبعده عن روح الجمود أو التصنّم التي أصابته منذ فترة.

صور كثيرة سريعة برقت في مخيلته، أرعدت أصواتاً وترانيم كنسيّة وزقزقة عصافير ووقوع قذائف. منذ صور الذاكرة في المدرسة، قفزت الصور الأهم في حياته، إلى أن استقر أبو ريمون في الذاكرة جالساً في زاويته المفضّلة يتساءل: هل خرجت «القوات اللبنانية» من الشياح باتجاه الأشرفية؟

ثم وقف كمراهق بين بساتين مرجعيون يسأل تيرا:

ـ صحيح. أي وطن أتحدث عنه؟

ـ أين ذهبت بفكرك؟

ـ ما زلت هنا.

ـ الصمود. إجعله شعارك حتى تنجلي العتمة.

ـ (وهو يبتسم) مصطلح عسكري مناسب.

ـ فكِّر في برنامج لبعد السفر. في تقوية لغتك الألمانية التي لا تستعملها.

أطال فادي النظر إلى تيرا صامتاً من دون تعليق، متأملاً عينيها ولون بشرتها التي لوحتها الشمس، والعزيمة والقوة الطافحة من خلاياها، وتمنى لو قبّلها بين السابحين والجنود ذوي الأحذية الثقيلة، والقطعتين البحريتين القابعتين بجوار

سنسول «غولدن بيتش».

ومن المؤكد أن تيرا أحسّت بما يفكر فيه، معبرة عن ذلك بإبهامها الأيمن الذي دغدغت به شفتيها، ثم شفتيه، فابتسم فادي مبدياً دهشته.

ـ نحن في بلد يتوق أصغر طفل فيه إلى السلطة، وأنا وأنت إلى قبلة! قالت تيرا.

ـ يبدو أنك ستقولين شعراً

ـ لو كان صوتي جميلاً، لصعدت إلى سطح آخر طابق وغنيت للناس.

لم يتمالك فادي نفسه، وضحك ضحكاً أحس بأنه فتح رئيته وأذنيه، بعد إغلاق استمر فترة طويلة، فجعله يسمع صوت ارتطام الموج المتكسر بصخور حدود المسبح الشمالية، وتفتّح عقله أيضاً لأمل قد يحدث فعلاً.

ـ ستغنّين للناس؟ سألها.

ـ سأغني لأنك بينهم.

ـ من دون ميكروفونات؟ هذا جنون. صوتك سيذهب مع الرياح.

ـ بل الجنون هو ما سيحدث الليلة.

ـ ماذا سيحدث؟

ـ عند السادسة مساءً، سأذهب مع عائلتي إلى كنيسة الصعود في ضبية لحضور عرس.

ـ وما الجنون في ذلك؟

ـ كل شيء تم في عشرة أيام. مهاجر أتى. رأى فتاة أعجبته. سيتزوجها ثم يعود مرة أخرى إلى كندا.

لم يدرِ فادي لماذا اقتحمت مخيلته فجأة صورة طائر نورس، يحط من أعلى إلى أسفل بسرعة الريح، ويلتقط سمكة من تحت سطح الماء.

ـ معظم الزيجات تتم بهذه الطريقة الآن، خصوصاً في فصل الصيف. عقّب على كلامها.

***

كسر اللقاء الأخير بين تيرا وفادي رتابة الحياة في مأوى العجزة وغرابتها، مقارنة مع الحياة في المنزل. وسكن الأمل قلبه بقوة، وقرر أن يعيش له فعلاً. وأخذ يرسم المستقبل بمخيلته حتى لا يحاصره الحاضر.

الحاضر الكئيب الممل، والحياة المشتركة التي كادت تقتله. فالأمر استغرق وقتاً طويلاً، لكي يتعود على المطبخ المشترك في الطابق الأرضي، حين يذهب لصنع القهوة، والذهاب إلى دورة المياه في آخر الممر، لأن الغرفة التي كان يعيش فيها مع أمه، لم تكن مجهّزة كمعظم الغرف. وقد وعدتهما الأم الرئيسة بتغيير الغرفة فور شغور إحدى الغرف المجهّزة. لكن الأمر بعيد كما اكتشفا، من نسبة المهجّرين التي تزيد ولا تقل.

أصبح فادي يبدأ نهاره مبكراً جداً للهروب من ذلك الكابوس اليومي، ويعود بعد انتهاء عمله ليأكل، ويطالع

بصوتٍ منخفض كتب المراسلات، والقصص باللغة الألمانية. وما كان يثير دهشته، هو صبر أمه على الحياة الجديدة. لم تتذمر مرة، ولم يرها متضايقة ولا لحظة. وذات مرة كان يقرأ، وأحس بعينيها تنظران إليه، فنظر إليها ثم ابتسم لأنها تنظر إليه ولا تراه، كونها مشغولة بفكرة في رأسها، ولوّح لها بيده لكي تنتبه.

ـ هل تعلم أن موسم الزيتون وفير هذه السنة؟

ـ وكيف عرفتِ؟

ـ أمور يعرفها الفلاحون فقط.

ـ وهل تظنين أن أخاك سيرسل النقود كاملة؟

ـ إنه يعرف ظروفي الآن، على الأقل.

وأحياناً، كان فادي يذهب إلى داني ليتسكعان معاً في الأشرفية، أو يذهبان سوياً إلى بيت ريمون. أو يأتي الأخير إلى بيت داني، حيث يجتمع شمل الأصدقاء الثلاثة.

ـ هل نسيت فعلاً أمر عملك الإضافي؟ سأل ريمون فادي

ـ عقلي توقف عند نقطة معينة. إذا فشل مشروع الهجرة، سأبدأ من جديد. قال فادي.

ـ وما الذي سيضرك من عمل إضافي؟

ـ لا أريد ارتباطات جديدة الآن. إضافة إلى أن معظم الناس تصرخ بسبب قلة الأشغال وجمود الحركة عند من يعمل.

ـ وما رأي فتاتك في الأمر؟
ـ رأيها هو الرهان على الهجرة.
ـ تريد التخلص منه ومن عناده. قال داني.

ضحك فادي بصوت عالٍ على مشاكسات داني التي تخرج من قلبه مباشرة، لدرجة أن من لا يعرفه يعتقد إنه لئيم.

لم يسمع فادي صوت تيرا منذ بعد ظهر السبت، أثناء وجوده في «غولدن بيتش». وسأل عنها صباح الاثنين على جهاز اللاسلكي، فقيل له إنها غادرت عملها بعد ساعتين فقط من حضورها، وطمأنوه إلى أنها وأهلها بخير، لكنها غابت لسبب لم تقله لأحد.

وقيل له صباح الثلاثاء إنها لم تأتِ إلى العمل. أما صباح الاربعاء فقيل له إنها أتت أمس ـ الثلاثاء ـ بعد اتصاله بدقائق، وطلبت إجازة لمدة أسبوع، وتركت له سلاماً وخبراً، أن جميع أهلها بخير.

جرّب الاتصال بمنزلها، لكن الخطوط الهاتفية المعطّلة لم تساعده. وذهب إلى جل الديب ليتصل من السنترال، فقيل له أن مولّد السنترال معطل، ومن ثم خطوط المنطقة بكاملها معطلة.

وفكر طويلاً أن يذهب إلى بيتها، لكن زيارته الوحيدة، ثم انقطاعه بعدها، لم تشجعه على القيام بزيارة أخرى. ورأى أن أفضل وسيلة هي الانتظار حتى بداية الأسبوع القادم. لكنه شعر أن الموضوع بكامله غامض بالنسبة إليه. غموض جعل

القلق يسكن قلبه، لأنه لم يتعود منها مثل هذا الغموض في علاقتهما.

عاد فادي من جل الديب مباشرة إلى المأوى، لأنه لم يرغب في العودة إلى العمل. وأخذ يتسلى بقراءة الصحف حتى وقت الغذاء. وأكل وهو يحس انه يوشك أن ينام، لأنه منذ يوم الاثنين وهو قلق، كثير التعصيب، قليل النوم. وسألته أمه عن السبب، وكان جوابه غير مقنع لها.

نام فادي بعد الغذاء مباشرة، وكأنه لم ينم دهراً. وبصر في نومه ان أمه تحاول أن تجعله يفيق، لأن تيرا أتت وهي تنتظره. وأجابها أنه متعب، وغير قادر على مقابلتها الآن. ولما كررت أمه جملتها، قام من نومه ليجدها فعلاً بجوار السرير، وهي تقول له إن تيرا تنتظره في الصالون.

بدّل فادي ثيابه بسرعة، ونزل إلى الصالون في الطابق الأرضي، شاعراً بانقباض عنيف يطوّق صدره وروحه.

ـ إنشغلت عليكِ. قالها وهو يصافحها.

ـ أخبروني في العمل أنك اتصلت.

ـ لماذا أخذت إجازتك؟

ـ فادي. هل يمكن أن نذهب من هنا لمدة ساعة.

ـ هيا بنا.

ـ بسيارتي. لأنني سأعيدك.

ذهبا إلى حرش تابت بسيارتها والطرقات شبه خالية، ووصلا في دقيقتين، وأوقفت السيارة في موقف مستشفى

الحايك. وفي خلال الدقيقتين لم يتوقف هو عن التساؤل عن الذي دفعها إلى عبور عدة خطوط تماس بعد الظهر، في وقت من المرجح دائماً أن تزيد فيه حرارة الحوار بين المتقاتلين.

- هل نتمشى ونحن نتحدث؟
- آه، نعم، قالها وهو يعود من أفكاره ووساوسه.
- فادي. أنا في مشكلة.
- ما هي، وهل بسببها طلبت إجازة؟
- نعم. جاءني عريس من أميركا.
- ومتى حدث ذلك؟
- رآني في عرس يوم السبت، وتكلم معي أثناء الكوكتيل، وتكلمت معه بلا مبالاة، على أساس ان الحديث تلطيش من شاب لفتاة.
- وبعد ذلك؟
- أخذ يستعلم عني من الموجودين، إلى أن اهتدى إلى أمي.
- وتكلم معها على أي أساس؟
- إنه جدّي ويتمنى الزواج من فتاة لبنانية، وهو باقٍ لمدة خمسة عشر يوماً فقط في البلد.
- إنني لا أستوعب ما تقولينه.
- يجب أن تستوعبه وبسرعة، لأنني في مشكلة فعلاً.
- وكيف يمكنني المساعدة؟

ـ ما ستقوله، سأنفذه حرفياً.
ـ موقف صعب جداً، نسبة إلى ظروفي الحالية.
ـ لا تفكر في نفسك أو ظروفك.
أحنى فادي رأسه ثم رفعها ولم ينظر باتجاه تيرا وقال:
ـ لا يمكنك الرهان عليَّ حالياً.
ـ ولماذا؟ قالتها والدموع تملأ عينيها.
ـ تهدمت حقائق في حياتي، وانتظر أحلاماً.
ـ هذا كلامك الأخير لي. قالتها بصوت متخدش والدموع تنهمر على خدّيها.
ـ إنني أتحدث معك بكل إخلاص.
ـ وهل تعتبر ما تهدم حقائقاً.
ـ نعم، منزل ومستقبل. والآن رهاني على ورقة، ولا أعرف كيف ستكون ظروفي في ألمانيا.
ـ هل أوافق على هذا العريس؟
سكت فادي للحظات ثم قال:
ـ أظن أن في كلامك أمر كاذب.
ـ أنا لا أكذب عليك.
ـ أحدنا كان يكذب على الآخر يوم السبت في المسبح.
ـ إنسَ السبت نهائياً. أنا فتاة لا أحد في حياتها، من وجهة نظر أهلي. لماذا أرفض عريساً من أميركا، في بلد بالكاد يعيش دقيقة بدقيقة.
ـ وماذا ستفعلين الآن؟

ـ حتى لو كان العريس شوازنغر، لا أستطيع أن أوافق في أقل من أسبوعين.

ـ ...

ـ فادي في المكان نفسه والساعة نفسها سألقاك بعد أربعة أسابيع لأقول لك ما حدث.

رجعا إلى سيارتها وهو غير مصدق ان دقيقتين يمكنهما تغيير حياة إنسان من النقيض إلى النقيض. أحسَّ بأن ما رآه وسمعه، كابوس نوم، لا يمكن أن يحدث في عالم الواقع.

نزل فادي من السيارة منحني الظهر، مكسور الوجدان، ضائع الهدف، حسب ما رأته هي. ينتابه الشعور بضيق الصدر وصغر المساحة، لدرجة أنه تخيل الأرض التي يمشي عليها وكأنها علبة كبريت. أما قبة السماء فقد اقتربت من الأرض لدرجة الإحساس بالاختناق. فبكى.

ـ تريد أن تلقاني بعد شهر! ماذا ستقول لي؟

كان احساسه بما حدث، يشبه إحساس سمكة وقعت في شبكة. الغرفة التي يعيش فيها مع أمه، ضاقت عليه في ذلك المساء، حتى انه أخذ يتمشى في الردهة أولاً، ويقف أمام الشبابيك ليتنفس، لأنه كان يحس بالاختناق.

خرج هائماً على وجهه في الشوارع حتى منتصف الليل تقريباً. وعند عودته وجد أمه لا تزال مستيقظة على ضوء قنديل كهربائي، تتسلى بسماع الموسيقى في الراديو.

ـ أين ذهبت وسيارتك لم تتحرك من مكانها؟

ـ تمشيت في الجوار.
ـ يا فادي، ماذا حدث بينك وبين تيرا؟
ـ لا شيء.
ـ أظن أن الموضوع على قدر كبير من الأهمية.
ـ صراحة، يجب ألاّ تبقى تيرا رهينة ظروفي.
ـ ولماذا أنت منزعج من قناعتك؟
ـ يا أمي. لا تزيديني ضيقاً. إنسِ الموضوع واتركيه للظروف.
ـ هل تعرف ماذا كان جدك يقول؟
ـ لا أعرف.
ـ كان يقول إن ما نخاف منه هو الأفضل لنا.

***

عادت تيرا إلى منزلها، وفي عمق نفسها تتراقص إرادة الوصول إلى قرار. استدعت صاحبة الذقن الموحية بالتصميم كل إرادتها تلك الليلة، للوصول إلى قناعة تسير بها عبر مفترق الطرق الذي تقف فيه. وكان أول ما فعلته عندما وصلت إلى بيتها هو توجيه «تحذير» إلى كل من في المنزل.
ـ لو اتصل صاحب الشركة بلّغوه إنني غير موجودة.
ـ حتى يوسف؟ (العريس المرتقب) سألت أختها.
ـ حتى العماد عون نفسه.

دخلت غرفتها وقفلت على نفسها بالمفتاح، ثم بدّلت ثيابها، واتجهت إلى الحمام، علَّ المياه الجارية تلطف حرارة

أفكارها ورطوبة الصيف. وعادت إلى غرفتها ثانية وأغلقت الباب بالمفتاح. وبعد تفكير طويل مرهق قالت لنفسها بصوت مسموع

أكيد انني أحب فادي، لكن هذا لا يمنعني من الاعتراف بأنه طعنني في كرامتي. رفعته إلى درجة تقترب من المسيح، فنزل إلى مرتبة أبله. ماذا يحدث لهم هؤلاء الرجال؟ قلت له: ما تقوله سأنفذه، وقال: ماذا ستفعلين أنتِ؟

لا شك في أن الضربات المتواصلة أفقدته وعيه. لكنني لم أفقده. أصبح فادي خارج الزمن الآن، يتمنى الرجوع إلى رحم أمه، وأنا خارج الرحم أواجه مصيري.

لو كان يوسف من دون إرادة، لن يتزوجني. لن يلمس يدي حتى.

أنا أقوى من إرادة أهلي. أقوى من ضعف فادي. أنا أواجه مصيري وسأكتب مستقبلي بيدي.

سأبدأ من جديد. سأعتبر ان كل ما حدث فقاقيع. أريد رؤية جديدة. أنا عينان مفتوحتان.

... وغفت دامعة العينين.

كان فادي يستقبل نهاره ويعمل ويزور الناس، بعد الضربة القدرية التي أصابته في حبه، كشخص مدمن على الشراب. يستقبل نهاره بنصف وعي، ويعمل ولا يدري بما يدور حوله. يزور الناس ويجلس صامتاً. فقد الأحاسيس المختلفة

للإنسان التي يواجهها يومياً من فرح أو غضب أو أمل أو تنافس.

أحس فادي بعد أيام أنه يسرف في إحتساء القهوة، والتدخين أحياناً. ولم تكن هذه عادته. ولاحظ الناس حوله انه يدقق مرتين أو أكثر في عمله، ولم يكن يفعل ذلك من قبل. وبات يشعر كل من يراه بحزنه وسكون قلبه، لكنه لا يفصح.

وفي أواخر حزيران، جاءه خبر أعاد شيئاً مما فقده إلى روحه. أعاد الأمل، لأن موعد المقابلة الأولى في السفارة الألمانية قد تحدد له. وكان أول ما فعله هو الذهاب إلى داني لإخباره وطلب النصيحة.

ـ لا تتردد ولا تكذب أبداً في أي معلومة تعطيها. قال داني.

ـ كل الناس تكذب. هل تصدق أنني سأقول لهم عن المأوى؟!

ـ هذه لعبة خطرة في السفارات، خصوصاً في الدول التي تعاني سرطان الحروب.

ـ لماذا؟

ـ لأنهم يحصلون على معلومات عن المهاجرين، تحصن دولهم من الإرهاب وانتشار السرطان فيها.

ـ هل هذه هي نصيحتك؟

ـ أنت مكشوف أمامهم.

ذهب فادي إلى السفارة بكل حماس وأمل، طلباً للنجاة من الحصارات التي يعيش فيها. ويبدو ان القائم بالاستجواب قد فوجيء بلبناني يتكلم الألمانية، عكس ما هو شائع عن البلد الفرنكوفوني.

كانت أجوبته كما نصحه داني. صادقة... قصيرة... واضحة. وكانت أطيبها عن سؤال يتعلق برأس المال الذي سيذهب به، لأنه قال: «عزيمتي يا صاحب السعادة. أنا لا أريد إعاشة بصفتي مهاجراً. لأن صاحب السعادة سأله بعد جوابه مباشرة: «هل أنت مستعد للسفر خلال ثلاثة أشهر بعد المقابلة الثانية؟» وكان رد فادي بالإيجاب.

شرح فادي تفاصيل اللقاء في السفارة الألمانية لداني، في أول لقاء لهما في كفرشيما بعد المقابلة. وقال له داني كلمة واحدة: مبروك

ـ هل أنت أكيد مما تقوله؟

ـ اللقاء ذو الأجواء المريحة معناه ديبلوماسياً القبول. أضف إلى ذلك ذكر لقاء ثانٍ.

ـ هل تريد السفر فعلاً يا فادي؟ سأله أبو ريمون.

ـ يا عم. ما هي فرصتي هنا الآن؟

وساد صمت بين الأصدقاء الأربعة، قطعه فادي فجأة بسؤال إلى أبي ريمون:

ـ لماذا قال المسيح في صلاته «لا تدخلنا ـ يا الله ـ في تجربة»؟

ونظر أبو ريمون مباشرة في عينيه وقال:
ـ على الرغم من أن التجربة تصقلنا!
ـ إنها تدمرنا أولاً، ثم نصل إلى الصقل بعد فوات الأوان. ومعظم الناس لا يُصقلون.
ـ اسمع يا فادي. المسيح عندي فوق كل الشبهات. ولا يمكن فهمه في عبارة واحدة. المسيح يُفهم ككل. وفي هذه النقطة بالذات ما قلته انت يكفي. «لا تدخلنا في تجربة»، طلب حنون جداً لإبعاد أو تخفيف الكوارث.
ـ لنعد إلى حديث السفر. قال داني.
ـ لا تسافر يا فادي، لأن الحرب ستنتهي قريباً. قال أبو ريمون.
ـ ولن ترى فتاة هاواي!
ـ إنني أتكلم جدياً. المسيحيون وافقوا على وثيقة الطائف، والبطريرك كان منذ أيام في زيارة للرئيس الهراوي في غرب بيروت. وهذه معجزة بحد نفسها.
ـ والحرب بين المسيحيين أنفسهم؟
ـ الحرب ككل ستنتهي. لا أعرف كيف. لكنها ستنتهي.
ـ أول مرة أراك بهذا التفاؤل. قال ريمون.
ـ لكن صديقنا غير متفائل، ويريد أن يسافر.

ـ المسألة خارج التفاؤل والتشاؤم. ما حدث لي هنا يصعب إصلاحه. ثم إن العودة إلى مرجعيون لا يمكن أن يعرف وقتها ولا نوستراداموس نفسه.

ـ معك حق. وهذا الموضوع قد يستغرق عشرين سنة، ونحن كم عشرين سنة سنعيش شباباً. قال ريمون.

ـ إنك لا يمكن أن تنقل سنديانة (في إشارة إلى أبي ريمون) من مكانها، لكن يمكنك زرع شتلة أينما تريد. قال داني.

ـ من المؤكد أنك ستذهب إلى جهنم. قال أبو ريمون لداني.

نظر داني إلى أبي ريمون نظرة ثعلب، وهو يقول له: كل الوجود ظواهر. وضحك أبو ريمون ضحكة طويلة جداً ومتقطعة، وقال في ختامها: بدأنا المبارزة الفلسفية.

كان الانتظار والضيق والانقباض العاطفي يجري في أعصاب فادي كسنابك جياد، تتلف هذه الشبكة كل يوم. حالة النصف وعي التي كان يعانيها نهاراً، كانت تتحول إلى حالة انتباه شديدة ليلاً. كان ينام فجأة بعد حالة الانتباه هذه، وفجأة يستيقظ قبل الفجر. فقد الانتقال من مرحلة إلى أخرى.

في الجهة الأخرى، بدأت تيرا مرحلة التعارف مع يوسف، بعنين وأذنين مفتوحتين. وأوحى اللقاء الأول إليها، انه ينظر إلى الزواج كأمر تجاري سيتم بين شريكين. سألها

عن معاشها، وعما إذا كان لديها حساب في البنك، والنقود التي ستحصل عليها من أبيها بعد الزواج.

ـ ولماذا تستفسر عن كل ذلك؟

ـ لأننا سنصبح شريكين. في أميركا يتعاملون هكذا.

ـ وهل قررت أن تتزوجني فعلاً؟

ـ نعم. لكن يبقى أمر بسيط، هو اطلاع أمي على الموضوع بالتلفون.

ـ وهل يفعلون ذلك في أميركا أيضاً.

ـ لا تنسي ان أصولي شرقية.

ـ في العادات والتقاليد فقط. أما المال، فأصولك غربية.

تعمدت تيرا أن تصمت لمدة خمس دقائق، أثناء اللقاء الأول، فسكت هو ولم يستطع بدء أي حديث.

وكان اللقاء الثاني في منزلها قصيراً جداً، لأنه بمجرد اختلائه بها في غرفة الصالون، أخبرها أنه حجز غرفة في فندق. وسألته عن السبب، فأنت ما زلت تقيم عند قريبك.

ـ لنمارس الجنس فيها، لأنه من غير المعقول ان نمارسه عند ابن عم أمي.

ـ لا بد أنك تمزح يا سيد يوسف... بعد الانتهاء من شرب قهوتك، عليك مغادرة المنزل بهدوء.

ـ لماذا؟ هل لا أعجبك؟

ـ وما علاقة الإعجاب بهذا الموضوع؟

ـ أكيد الإعجاب له علاقة. كيف سنمارسه بعد الزواج.

ـ وهل تزوجنا لكي نمارسه؟

ـ أوه. أنت ما زلت تقفين عند هذه التفاصيل التي نبذها العالم الغربي.

جلست تيرا في وضعية من ينتظر الآخر لينتهي من شرب قهوة الضيافة، ليفعل أي شيء آخر. وغادر يوسف المنزل.

غاب يوسف بضعة أيام، ثم عاد وتحدث مع أهلها بوجودها، وأخبرهم كم فرحت أمه من الخبر. وانه بمجرد وصوله إلى أميركا، سيبدأ في تجهيز منزل جديد للزواج، وسيتصل بتيرا يومياً لوضعها في أجواء التجهيز. وطلب من تيرا صورة ليريها إلى أمه.

ـ لا أعطي صورتي لأحد. قالت تيرا.

ـ هل هذا الطلب غير معقول (قالها بالإنكليزية) يا عمي؟ سأل يوسف أبا تيرا.

ـ طلب معقول.

ـ أنت الذي سيتزوجني وليس أمك.

ـ لكنها تريد رؤية خطيبة ابنها.

ـ إننا حتى لم نصبح خطيبين رسمياً.

ـ ما زلت تقفين عند تفاصيل تافهة.

ـ وهي عندي أهم من أي شيء آخر.

***

جعلت حساسية فادي المفرطة الأيام والوجوه والمواقف، تنساب كنهرٍ بجواره، لا يثير فيه أدنى انتباه. لا هديره ولا الأثر الذي يفعله في الحياة، أو حتى أماكن الجمال القريبة منه، كانت قادرة على انتشاله من الهوّة العميقة التي سقطت فيها روحه.

وعلى الرغم من ذلك كان ينتظر يوم اللقاء مع تيرا، ليعرف كيف انتهت هذه الخطوة القدرية، التي نقلت شخصاً من نيوجرسي إلى كنيسة «الصعود» في ضبية، ليرى في فتاته، هو بالذات، عروس الغد. كان ينتفض كمَنْ مسّه تيار كهربائي، كلما تخيلها بين أحضان شخص آخر تبادله الحب.

وكان الخيال يشطح به أحياناً، فيجعله يفسر موجة مودتها وحنانها الأخيرة بتأنيب الضمير.

- لا بد أنها تعرفت إليه منذ فترة، وكان أمر اللقاء المفاجىء مجرد إخراج لائق لمسرحية لا أعرف تفاصيلها.

عاد مرات كثيرة إلى أدق تفاصيل آخر لقاء لهما، ليصل إلى ما يؤيد شكه، ولم يجد سوى مجرد ظنون.

- أخرجت حواء آدم من الجنة، ومن السهل عليها إخفاء أمرٍ لمدة شهر حتى ينضج.

لم يكن يعرف أن الدمع لم يجف في عينيه، لأنه منذ إقتُلِع من مرجعيون، اعتاد سماع أمه تقول إن شيئاً لا يستحق البكاء عليه. لكن هذا اليقين السماعي، انكسر بعد ظهر يوم

رأى فيه كيف تتجسد الكوابيس.

وفيما كان فادي ينتظر حضور ريمون وداني من عملهما في كفرشيما، انتهز أبو ريمون فرصة وجوده وحيداً معه في المنزل، واقترب منه على الصوفا.

ـ يا ابني. هناك أمر كبير تخفيه عني.

ـ انتظر الوقت المناسب لأقوله.

ـ إنه أمر حزين وقد حدث. لماذا لا تخبرني؟

ـ وكيف عرفت أنه حزين.

ـ من معنوياتك. حتى ريمون لا يعرف، لأنني سألته.

ـ حتى هو. صدّقه.

ـ ما هو أبطأ وأضعف مخلوق على الأرض؟

ـ النملة.

ـ هل تعلم انني في وحدتي راقبت النملة؟

ـ وماذا وجدت؟

ـ النملة تقطع مسافة٥٠ سنتيمتراً في ١٠ ثوان، أي أنها تقطع في الدقيقة الواحدة ثلاثة أمتار. وفي الساعة ١٨٠ متراً. ونسبة إلى طولها البالغ ٢ مليمتر، فهي تسير بسرعة ٩٠٠ كيلومتراً في الساعة. أضف إلى ذلك انها تحمل ضعف وزنها خمسين مرة.

ـ النملة؟ أنت رأيت ذلك بعينيك؟

ـ نعم. كم يحمل أقوى إنسان.. وما هي سرعة أسرع عداء ماراتون؟

ـ تقصد أن لدى الإنسان طاقة لا يستخدمها؟
ـ وأتمنى ألا تدمرها. يا فادي. هل هناك أي خطر عليك؟
ـ لا. لماذا؟
ـ لأنني لاحظت وجود مسدس معك في السيارة، عندما ذهبنا إلى الدكان الأسبوع الماضي.
ـ أخبرتني أمي أن أبي كان يقول: السلاح يرفع معنويات الإنسان.
ـ الموضوع خاص بالمعنويات فقط؟! يمكنني مساعدتك.
ـ معنويات فقط.
ـ على الرغم من عمري الذي تعرفه، إلاّ انني لم أخرّف.
ـ أنا على ثقة من شباب إرادتك وعقلك يا عم أبو ريمون.

كان فادي يتحرك، بحكم ظروف البلد، في دائرة ثابتة يبدأها صباحاً بالذهاب إلى عمله، والتحرك منه إلى المؤسسات والبنوك، التي يحدث أي خلل في أجهزتها الكمبيوترية. وقد يعود منها إلى مركز عمله أو لا يعود، حسب مدة جولته الزمنية، أو حسب الظروف الأمنية التي كانت تنهي نهار عمله باكراً أحياناً. وكان يتحاشى قدر الإمكان العودة إلى المأوى ظهراً لتناول الغذاء، بالذهاب إلى منزل داني لتمضية

الوقت في مقهى «مكسيمز» بالأشرفية، أو الذهاب إلى إحدى دور السينما، أو زيارة ريمون في كفرشيما إذا لم يكن الأخير مداوماً في مستشفى «حداد» بعد الظهر.

كانت هذه الدائرة، وكذلك دائرتا صديقيه شبه الثابتة هي أقصى ما كان يمكنهم عمله في ظروف الحرب. ولذلك كان لقاؤهم يحمل السعادة للهروب من الروتين، والمساحة الضيقة التي يعيشون فيها. هذه اللقاءات لم تكن تخلو من الضحك والطرافة والتعليقات. ومن المؤكد أن أبا ريمون كان يشاركهم فيها في معظم الأحيان. وكان داني يختفي أحياناً، ليعود إلى الظهور ويلقي باللوم على «الترتيبات» التي منعته من الزيارة. وكانت هذه «الترتيبات» باختصار هي لقاءات مع أهله الذين يحبون الاطمئنان عنه من فترة إلى أخرى. وكان داني بعد هذه «الترتيبات» يعود مشحوناً بتعليقاته الطريفة، التي ادّخرها لأصدقائه.

- هناك بعض الناس تتمنى دوام الحرب إلى الأبد. قال داني.
- ماذا تقول يا رجل؟
- لأنهم مستفيدون مما يحدث. قالها وكأنه لم يسمع سؤال فادي.
- هل أنت تهزل كعادتك؟ سأله ريمون.
- تهزل الحياة معك أحياناً، وأنت في موقف جدي، فتحتار من هذه الغلاظة، وبعض الناس ينظر إلى

الحرب، على أنها لعبة تدر نقوداً.

ـ السياسيون؟ سأل فادي.

ـ وغيرهم. المستشفيات مثلاً (وأشار إلى ريمون) القادرون على جلب البنزين والخضروات على الرغم من الحصار.

ـ سيكون دورنا وقت السلم. قال ريمون.

نظر داني إلى ريمون نظرة طويلة، ختمها بضحكة لا صوت لها، توحي غالباً بأنه يفكر استعداداً للرد.

ـ صانعوا الحرب هم أبطال السلم.

ـ لقد ازددت تشاؤماً منذ أن رفضت السفارة الأميركية اعطاءك موافقة الهجرة. رد عليه ريمون.

تلقف داني الضربة، وكانت ردة فعله هي معاودة ضحكه من دون صوت:

ـ خسروا مواطناً يقاتل في تجارة العطور بشرف.

ـ هل ستكف عن التفكير في الهجرة؟ سأله فادي.

ـ رفضوني لسبب سياسي عام يخص البلد. لكنني سأعاود تقديم طلب بعد سنة. وأكمل الضحك بطريقته الفريدة.

اقترب تموز من نهايته، وأصبح موعد فادي وتيرا قريباً جداً. كان يشتاق إلى قدوم ذلك اليوم ويخاف منه، لأنه كان يحس بعدم قيمة هذا اللقاء. وكان ينتفض إنساناً آخر داخله أحياناً، ويتحاوران بالكلام نفسه:

ـ ماذا لو لم يتم التوافق بينها وبين ذلك الشاب؟
ـ ماذا تقول؟
ـ أقول إن أي أمر في الدنيا، يحتمل النجاح أو الفشل.
ـ لكن مشروعي أنا فشل.
ـ أنت فشلت، فانتظر.
ـ أنتظر ماذا؟
ـ ماذا فعلت هي.
ـ هي ستفعل ما يناسبها.
ـ الحياة أكبر وأغرب بكثير مما تعتقد.

أبلغت السفارة الألمانية فادي أن موعده الثاني والأخير مع السفير، سيكون بعد شهر. وكان التبليغ قبل يوم من لقائهما. وقد أعطاه «الموعد الثاني والأخير» بعض الحيوية، لأنه كان يؤمن بأنَّ السفر والعمل في ألمانيا سيحسّن ظروفه، ويجعله قادراً على الحياة والتفاعل والعطاء والتطور.

من جهة أخرى، كان يظن أن السفر سيعينه على النسيان ـ لأنه كان يتصور أن موضوعه مع تيرا قد انتهى ـ لأنه سيخرج من دائرتي مكان وزمان لبنان، ممّا سيتيح له الانعتاق بفضل تغيير البيئة والمستقبل.

وذهب إلى اللقاء وهو مفرّغ تماماً من كل ما وضعت الحياةُ من أحاسيس في الإنسان. ووصل قبل الموعد بربع ساعة، وأخذ يقطع الوقت جيئة وذهاباً، في الأرض المعشوشبة

المتاخمة لموقف مستشفى «الحايك». ووصلت تيرا مرتدية قميصاً وبنطلوناً باللون الأزرق الفاتح. ومدّت يدها لتسلّم عليه، وبشكل آلي نظر إلى أصابع يدها اليمنى فلم يجد محبساً. ولم يدر لماذا شعر بالراحة.

ـ هاي فادي. كيف أحوالك؟

ـ جيدة. وأنتِ؟

ـ جيدة أيضاً. ماذا فعلت خلال هذا الشهر.

ـ أهم ما حدث. هو شبه الموافقة على الهجرة.

وأخبرها بالتفاصيل ـ ليخفف حدّة اضطرابه ـ عن مشواره الأول في السفارة، والحوار الذي دار هناك. وكيف أوضح له داني ـ وهو صاحب الخبرات في السفارات ـ ان مجرد ذكر لقاء ثانٍ في أي سفارة، معناه القبول شبه النهائي للطلب.

استمعت تيرا إلى فادي بشكل جعله يشعر أن كل الأمور من حولها غير موجودة، ما عداه وعدا كلامه، ممّا جعل اضطرابه يقل تدريجياً، حتى وصل إلى نقطة مقبولة جداً، لم يصل إليها خلال الشهر الماضي.

ـ مبروك يا فادي. ستكون في ألمانيا خلال ٩٠ يوماً بعد لقاء السفير.

ـ ولماذا تسعون يوماً.

ـ فترة «الڤيزا» التي تُلغى إذا لم تسافر خلال هٰذه الفترة.

ـ هل وقتكِ يسمح بشرب فنجان قهوة؟

ـ في مقهى «نوفا برازيليا»؟

وذهبا سيراً على الأقدام وهما يتحدثان

ـ إنني فعلاً انتظر هذه الفرصة.

ـ والحق معك.

ـ وأنتِ. . . ماذا فعلتِ؟

ـ فادي. أنت فعلاً بحاجة إلى هذه الفرصة، لأنك لا ترى نفسك. ماذا يقول أصدقاؤك لك؟

ـ إنهم في حيرة، لأنني لم أقل لهم ما حدث بيننا.

ـ لماذا؟ ريمون وداني مقرّبان منك على ما أعرف.

ـ المشكلة. . .

ـ المشكلة هي وقوفك عند انفجار المنزل، وعدم تخطّي هذا الأمر.

ـ وماذا أفعل الآن غير محاولة تخطي المسألة.

ـ أقصد داخلياً.

ـ التغيير الخارجي سيتبعه آخر داخلي.

ـ هل تظن ذلك؟

لم يجب فادي عن سؤالها، وقفزت هي إلى شرح ما حدث معها خلال الشهر الماضي، للهروب من مضايقة فادي.

أخبرته أن تجربة «عريس الغفلة» أشد على النفس من الذي يفخخ نفسه ويذهب إلى عملية إنتحارية، لأن الأول لا يعرف الاحتمالات القادم عليها، بينما الثاني يعرف ان العدم مصيره، أو الجنة حسب اعتقاد بعضهم. وأنها هي شخصياً

أعطت هذه التجرة فرصة، لكنها وصلت إلى قناعة بعدم مقدرتها على مقاسمة أي شخص الحياة نفسها، من دون أن تعرفه.

- هل ما زلت تشربين القهوة من دون سكّر؟
- نعم. كانت فترة خمسة عشر يوماً، غير كافية للتعرف إلى الشخص الآخر. تواعدنا على المراسلة والاتصالات الهاتفية، وربما زيارة إلى أميركا للتعارف أكثر.
- هذا ببساطة ما حدث؟
- باختصار لأنني لا أريد أن أوجع رأسك.
- ولماذا لم تتصلي خلال الأسبوعين الماضيين؟
- عدت إلى عملي، وكنتُ أحضّر نفسي لمواجهة حياتي الجديدة مرة أخرى.
- هل أنت مرتاحة إلى حياتك الجديدة؟
- صراحة. أنت أنهيت حبنا تماماً، وعلى وشك السفر لمستقبل جديد. وأنا كما شرحت لك. لماذا لا نلتقي كأصدقاء يشجع كل منّا الآخر.
- أنا لم أنهِ حبنا. لقد تحدثت معك بإخلاص.
- وبالإخلاص نفسه الذي تحدثت أنت به معي منذ شهر، أقول لك انقذ نفسك ودع الحياة تتصرف.

تركت تيرا فادي لتعود إلى منزلها قبل حلول الظلام، وقد تواعدا على اللقاء بعد عشرة أيام. وعاد فادي إلى المأوى وكل

الذكريات السابقة مع تيرا تحيطه بلمسات من حنان، ما عدا قولها إنه هو شخصياً الذي أنهى قصة الحب.

لم يقدر فادي على فهم حنق تيرا عليه، لأن عقله قد توقف عند نقطة محددة هي أنه تكلم بإخلاص معها. وهذا الإخلاص أوصله إلى ما تقوله هي. لكنه، على أي حال، كان المخلص والصادق معها.

وعادت تيرا إلى منزلها وفي ذهنها يدور شريطان عن فادي ويوسف، والاختلاف الكبير بينهما. وكيف ان فادي ـ على الرغم من جرحه المذهل لكرامتها ـ كان هو الحاضر في معظم صور ذاكرتها. وكيف انها لا تجد ما تقوله لنفسها عن رجل تخلّى عنها في أهم موقف يعترضها في حياتها، وهي ببساطة تتفق معه على موعد آخر.

كان فادي يقرأ جريدة بعد الظهر، بعد ستة أيام على لقائه مع تيرا، وانتبه إلى همس أمه وهي تخبره أن فتاة اسمها منى تنتظره في الصالون.

ـ ومن أخبرك؟

ـ إنني آتية من الدكان، ورأيتها تسأل عنك.

ـ من؟ هل أنت أكيدة من الاسم؟

ـ نعم.

نزل فادي إلى غرفة الصالون أسفل البناية، وابتسم وهو يتذكر همس أمه.

ـ لعلها اعتقدت أنها فتاة جديدة في حياتي.

لكنه لم يستطع الوصول إلى تفسير يبرر حضور منى، أو كيفية معرفتها مكانه.

ـ أهلاً منى. ما هذه المفاجأة، وكيف عرفتِ بوجودي هنا؟

ـ مفاجأة حلوة؟

ـ نعم

ـ تيرا أخبرتني عن المكان منذ زمن.

ـ هل حدث شيء؟

ـ لا. إطمئن. جئت بمبادرة شخصية، وأتمنى عليك أن تظل سراً بيننا.

ـ أعدك بذلك.

ـ تعلم مدى صداقتي مع تيرا. لكنك ربما لا تعلم أمراً آخر.

ـ وما هو؟

ـ أنك حبها الكبير.

ـ ...

ـ يا فادي، ماذا فعلت منذ شهر؟

ـ هل أنت على علم بالتفاصيل كي أتكلم؟

ـ أعلم. وجئتُ لإنقاذ هذا الحب.

ـ أنت تعلمين وضعي الصعب الآن. لذلك تحدثت معها كصديق مخلص.

ـ هذا إخلاص الرجال في ما بينهم. لكن المرأة لا

تحتاج لمثل هذا الإخلاص.

ـ وماذا كنت أستطيع أن أفعل؟

ـ كنت تستطيع أن تقول: إنني موجود. كل ما أفعله هو من أجلك. حتى الهجرة من أجل إنقاذ حبنا.

ـ لكنني فعلاً في وضع صعب.

ـ والأصعب هو أنك تراه محطة أخيرة.

ـ من قال هذا الكلام؟

ـ تيرا فهمت ذلك من تصرفاتك.

ـ وما هو المطلوب مني؟

ـ أن تثق في أمرين.

ـ وما هما؟

ـ إنني جئت بمبادرة خاصة، تيرا لا تعلم شيئاً عنها.

ـ والثاني؟

ـ في الوقت الحالي، لا أحد في قلبها ولا حتى أنت.

ـ وبالنسبة لـ . . . على فكرة، أنا لا أعرف اسمه.

ـ يوسف. وهو لا يعني شيئاً بالنسبة إليها. ومن حسن حظك، انه رجل لا يأخذ قرارات. ضعيف.

ـ خُيل لي في لحظة، انهما سيتزوجان خلال أسبوع.

ـ الموضوع شبه منتهي يا فادي. هل تصدق أنهما سيعرفان بعضهما أكثر خلال وجودهما في بلدين، أحدهما لا بريد أو هاتف فيه؟!

ـ وما هي أسباب نهاية موضوعي أنا؟

ـ أنت بما قلته، طعنت تيرا فعلاً في كرامتها.
ـ وهل أنتِ موافقة على ذلك؟
ـ تخيل أن حبيبي يقول لي إذهبي إلى غيري. من الأفضل أن تبدأ معها من الصفر مرة أخرى.
ـ من المؤكد إنكِ صديقة مخلصة. لكن أنا أيضاً عندي كرامتي.
ولم أكن أتخيّل أبداً أن مجرد كلمة تنهي علاقة. أنا أعتقد ان مجموعة تصرفات الإنسان هي التي تُميت علاقة أو تُحييها.
ـ لا تجعلني أندم على حضوري.
ـ بالعكس. أنا أشكرك جداً، ولا يمكنك الذهاب قبل التعرف إلى أمي وشرب القهوة.

***

كانت نسائم بعد الظهر تلطف أجواء كفرشيما الحارة، والحركة تكاد تكون معدومة في البلدة، بينما أبو ريمون يتسلّى كعادته في حديقته الصغيرة بجوار المنزل، يسقي زهوره وينقي ما حولها من شوائب وحشائش ضارة، ويتكلم أحياناً مع الشتول المريضة.

ـ خبّرت الناس مرة إنو الزرع السليم بيساعد المريض، ما حدا صدّق. بس أكيد إنو إنتو (يقصد الزهور المريضة) مصدّقين.

جعلت سماء أواخر آب الصافية المشهد من كفرشيما،

صعوداً ـ بالنظر ـ إلى عاليه وسوق الغرب لوحة ريفية تشكيلية، رائعة، تبدأ بأشجار الزيتون والرمان في أسفل اللوحة، صعوداً إلى مساحات الصنوبر في كفرشيما وبسابا والمعروفية، وصولاً إلى المساحات الخضراء التي لا يستطيع أن يميزها النظر في عاليه وسوق الغرب.

انتبه أبو ريمون فجأة لخطوات زاحفة خلفه، فانتصب فوق زهوره، واستدار ليواجه الآتي نحوه، واضطرب عندما رأى امرأة متشحة بالسواد.

ـ إم جوزيف... شو بكِ لابسة أسود... شو في؟

ـ أبو ريمون... نسوان الضيعة اختاروني، منشان وصلّك خبر.

ـ خير يا أم جوزيف.

ـ وقعت قذيفة في باركن مستشفى الروم اليوم.

ـ الـ.. (يقصد العماد عون) قصف المستشفى؟

ـ لا. قذيفة واحدة.

ـ وشو صار.

ـ وقعت مباشرة بقلب سيارة.

ـ شو يعني؟

ـ الشوفير كان فيّا... وقتل.

ـ ومين اللي قالك كل هالحديث؟

ـ الراديو.

ـ عن شو عمتحكي يا إم جوزيف.

ـ ريمون كان بسيارته، يا أبو ريمون. وهي اللي انحرقت.

ـ إطلعي برا يا . . .، وإياك ترجعي ثاني لهون، واللي بدّو يجي من الضيعة أنا رح قوّصو.

انسحبت المرأة تتعثر في مشيتها وأحاسيسها الصادقة، تجاه الرجل وابنه، وردة فعله التي ما توقعت أن تكون هكذا، نظراً إلى علاقتها القوية به، إضافة إلى صلة القرابة التي تربطهما.

«واللي بدّو يجي من الضيعة أنا رح قوّصو». مسكين أبو ريمون. لا بد أن مسّاً قد أصابه. معه حق. ابنه الوحيد الذي كان له الأب والأم. قالت لنفسها.

وقالت للنسوة، المتّشحات بالسواد، اللاتي ينتظرنها، وحذرتهن مع أزواجهن:

ـ انتطروا ساعة. . . الرجل في حالة جنون فعلية.

ـ معقول نتركو لوحده.

ـ أيه معقول. . تيروق، تيستوعب اللي حصل، ونحنا حتى ما فينا نطلع عالأشرفية هلق نية.

ـ الأفضل أن ننتظر قليلاً.

أما أبو ريمون فلم يتحرك بوصة من مكانه. جلس على أرض حديقته وشعر بأن الكون كله قد اهتز، لدرجة عدم مقدرته حتى على الاتكاء على السياج ليدخل إلى بيته. تسمّر

على الأرض شاخصاً إلى باب السياج، كأنه صنم من حجر، خالٍ من الفكر والذكريات.

ـ شو قالت هالخرفانة؟

واسترجع الحوار الذي دار بينهما من لحظات

ـ لا بد انها خرفانة. ٦٥ سنة بعرفها، وهلّق بس عرفت إنو هيي خرفانة.

وبعد لحظات قال:

ـ معقولة يصير اللي قالتوا؟!

وضع أبو ريمون كفه الأيسر على جبينه وضغط بشدة، وهو لا يشعر ببداية الهول الذي صعقه منذ لحظات. أحس بفراغ رهيب يحتل جمجمته، وانه يختنق، وان الهواء قد اختفى من الضيعة.

أغمض عينيه، وضغط مرة أخرى بأصابعه على جبينه، وفتح عينيه بالتزامن مع تكبير حركة الشهيق ليتنفس، فرأى ريمون يدخل من باب السياج، فاستوقف الشاب بحركة من يده اليسرى فوقف، والأفق وراءه يكتسي بأرجوانية سماء الصيف الحارة بعد الغروب بدقائق.

ـ بعتقد إنك مار الياس إجا متنكر، منشان يعزّيني ويفلسف لي موت ابني الوحيد.

ـ أبو ريمون... شو باك؟

ـ حتى لو إنك مار الياس اللي بحبو، رح قوّصك.

ووصل فادي وداني، إذ كان ريمون قد سبقهما بلحظة،

ووقفا على باب السياج مشدوهين، عندما سمعا أبو ريمون يهذي.

- أبو ريمون... شو باك. كرر ريمون العبارة نفسها.
- مرا... إجت وقالت لي إبنك مات.
- وانت صدقتها قبل أن تعرف القصة؟
- صدقتها، لأن الراديو قال.
- وهل كل شي يقال في الراديو صحيح؟

أمسك أبو ريمون رأسه بأصابع كفيه، وكأنه يمنعه من الانفجار، وبكى وهو يقول:

- مش معقول الشيطان يتنكر بصورة داني منشان يفلسف لي موت ابني كمان.

ورفع عينيه إلى ابنه وصديقيه، وقال والدموع على خديه:

- يا بني. كيف ركبت قصة موتك. نسوان الضيعة لبسوا أسود.
- أتى إليّ فادي وداني، وذهبنا إلى صديق لداني امه ساخنة. وعرفت من «الفلاش» في الراديو أن قذيفة وقعت في باحة المستشفى. وعندما عدنا إلى المستشفى بعد ذلك، عرفت أن سيارتي احترقت، فأتينا إلى هنا مباشرة بسيارة فادي.
- ومين اللي مات فيّا؟ سأل أبو ريمون
- ما عندي فكرة.
- ربما كان أحدهم يحاول سرقة المسجلة. قال داني.

ـ من أين تأتيك مثل هذه الأفكار.
ـ خلّيك عانيّاتك. الحرامية يسرقون دائماً في مثل هذه الأوقات. قول شيطان مرة ثانية.
ـ والدة من التي ذهبت إليهم؟ سأل أبو ريمون ابنه.
ـ صديق لداني.
اقترب الرجل من داني وعانقه وهو يقول:
ـ اليوم قمت بوظيفة الملاك الحارس لابني.

***

فتيلة الحرب بين الوحدات العسكرية التابعة للعماد ميشال عون و«القوات اللبنانية» تذوي ضعفاً، بسبب الضربات الموجعة التي كالها كل طرف للآخر، وسياسة الأرض المحروقة التي استخدمتها الميليشيا، وجعلت العماد لا يتحرك. والحصار الذي فرضه الطرفان المتقاتلان على بعضهما، والحصار المضروب عليهما سوياً، وهو الذي منع عملياً وصول ذخيرة تعوّض التي استخدماها. يضاف إلى ذلك نية الميليشيا بلسان رئيسها على تأييد التحالف الموافق على تطبيق اتفاق الطائف «من دون أي لُبس»، وتجيير العماد على الشرعية الدستورية الجديدة، لترى ماذا ستفعل به.

حمل أيلول، نهاية فصل الصيف اللاهب، والاستعداد لعام دراسي غامض المصير في البلد، مفاجأة شبه متوقعة لفادي: الموافقة على الهجرة من السفارة الألمانية، التي جعلته يغادر السفارة بقلب يكاد يطير من ضلوعه.

من المؤكد أن داني كان أول العارفين بالخبر، واستقبله بمشاعر متناقضة من الفرح والحزن. «سأشتاق لك كثيراً» قال داني. وكذلك قال أبو ريمون وابنه، لكن بتعابير وكلمات أخرى.

وبدأ فادي يخطط للشهور الثلاثة الباقية له في لبنان. وأول ما فعله لذلك البرنامج هو إبلاغ عمله بأن تشرين الأول هو آخر شهر له في المؤسسة. ومنها اتصل بتيرا في عملها، وأخبرها انه يريد مقابلتها لأمر هام، واتفقا على التلاقي بعد دوام عملها في مقهى «نوڤا برازيليا».

ذهب فادي قبل الموعد بربع ساعة، وأخذ يتسلى بقراءة الجريدة كالمعتاد حتى تصل تيرا. لكن الساعة أصبحت الثانية والربع بعد الظهر ولم تصل. وشكل عدم وصولها صدمة له، لأنها كانت المرة الأولى التي تتأخر فيها عن الموعد. ولم يدرِ فادي لماذا دخل التشاؤم إلى قلبه. وسأل صاحب المقهى عما إذا سقطت قذائف في المنطقة، وكانت الإجابة بالنفي. وطلب فادي منه ان يجعل الآنسة التي تأتي بصحبته تنتظره، لأنه سيذهب لمدة عشر دقائق ويعود.

اتجه فادي إلى مقر عمل تيرا، ولم يجد أحداً. وعاد إلى المقهى ولم يجدها أيضاً. وانتظر لمدة نصف ساعة أخرى، وفكرة واحدة تأتي وتذهب في ذهنه.

ـ منذ أيام ظن أبو ريمون أن ابنه قد مات. واليوم ماذا سأظن أنا؟

كان الحل الوحيد لغياب تيرا، هو الذهاب إلى بيتها للسؤال عنها. وذهب فادي ووجد سيارتها تقف بجوار المنزل، فارتاح نسبياً. وصعد ليطمئن عليها ولم يجد أحداً في المنزل. وأخذ يسأل نفسه قبل أن يستقل سيارته ويعود إلى منزله، عن سبب وجود سيارتها وعدم وجود سيارة أبيها، لعله يصل إلى حل. وبينما كان واقفاً أمام سيارتها وهو يفكر، لفت نظره وجود ورقة مطوية تحت مسّاحة السيارة اليسرى.

ابتسم فادي وهو يقرأ الورقة «هاي. اتصلت بك بعد ساعة لأقول لك إنني لن أتمكن من الحضور، لأنني عرفت ان خالتي قد توفيت، ولم أجدك في العمل. سأتصل قريباً. تيرا».

شرح فادي لتيرا فيما بعد ما حدث معه في السفارة، وكيف سيسافر في تشرين الثاني. ورفضت دمعة تقف خلف عينيه النزول كبرياءً. وكانت ردة فعلها الأولى على الخبر هي الوجوم. ثم انتقلت إلى تشجيعه بعد ذلك. ولاحظ أن وجومها صادق، وكذلك تشجيعها.

شجعته كصديق مخلص يساعد صديقه على الخلاص من ورطة كبيرة وقع فيها. وسألته عن مشاعر أمه، وكيف ستعيش في الفترة التي سيغيب فيها، وهل تنوي اللحاق به. وعرفت أن أمه منزعجة من سفره، لكنها وضعت مصلحة ابنها أولاً. وهي تنوي فعلاً أن تعيش معه في ألمانيا،

وستنتظر هذه اللحظة بمساعدة القديسين.

أطال فادي التفكير في ما قالته منى عن تيرا، وقابل بين الكلام وأفعال تيرا ووجد تطابقاً مذهلاً. تطابق كان يدفعه أحياناً إلى الشك في وجود اتفاق بينهما، لأن أفعال تيرا أكدت له انها لا تفكر في يوسف، وانها غير مقتنعة بسفر مع «عريس الغفلة» إلى أميركا بلد الأحلام.

من جهة أخرى، كانت هناك مشكلة تئن في أعصابه، وهي أن تيرا كانت فعلاً تريد بداية جديدة لحياتها. كانت نظراتها إليه نظرات صديق إلى صديقه. عينان اختفت منهما لهفة الشوق وحنان المحبين، وحلّت محلها لمحات التفهم والنظرة البيضاء المحايدة.

ـ هل صحيح أن أحداً لم يعد في قلبها، كما قالت منى؟

سأل فادي نفسه هذا السؤال كثيراً، ووقع في حيرة العشاق الذين يغيب المنطق دائماً عن تفكيرهم. وكان يعود من جولته التأملية، ليسأل نفسه ويجيب في حوار عبثي:

ـ وإذا كانت الأمور كذلك، لماذا تراني؟!

ـ ربما الصداقة هي السبب

ـ صداقة مرّة فعلاً.

ـ ولماذا تضع نفسها خارج تطورات حياتي؟

ـ أنا الذي وضعتها، حسب ما قالت منى.

ـ هي التي وضعت نفسها.

ـ لماذا؟

ـ لا يمكن أن يقف الحب على أهبة التحليق أو الانهيار بسبب كلمة.

تشويه عشقي وخوف على كرامة شخصية، جعلا فادي ينظر إلى تيرا على انها أمل ضاع في حياته، على الرغم من وجوده معه. جعلته النظرة الدونية التي ينظر بها إلى نفسه، بعد سكنه في المأوى، يضع سبب ما حدث على الغباء الكوني الذي ربما أصاب هذا الحب بشظية منه فانشطر.

ـ كيف يمكن لإنسان يعيش في مأوى أن يتقدم لزواج فتاة؟

أطفأ ماء «الكرامة الشخصية» البارد كل محاولة منه لإعادة جذبها إليه من جديد، ما جعله يحس أن شهوة الحياة نفسها ماتت فيه، ولم يبقَ سوى الأمل في صناعة ظروف أفضل لحياته، والتغيير الكليّ للبيئة والناس الذي أصبح مطلبه وهاجسه.

وعلى الرغم من أنه كان يعيش على أمل التغيير المرتقب، إلاّ أنه كان في عمق نفسه يحس انه يقتلع نفسه من جذور وطنه، التي تمتد من جنوبه الدامي حتى بيروت المجنونة. كان دائم التفكير أيضاً في أمه التي سيتركها فترة من الوقت، لا يعلم إلى متى يطول مداها، حتى يجهّز نفسه وظروفه في ألمانيا لاستقبالها.

وفي المرات القليلة المتباعدة التي التقى فيها فادي تيرا،

كان كل منهما حريصاً على السؤال عن موعد اللقاء الآخر، وإن كانت الصيغة تأتي بشكل يحرص فيه كل منهما على أن تبدو عادية، لا تلهف فيها أو اشتياق.

غادر فادي ذات يوم في أواخر أيلول شركته في الأشرفية، متجهاً إلى بيت مري، ليفحص كمبيوتر إحدى شركات الشحن البحري، التي انتقلت من منطقة الدورة بسبب القتال الأخير وانقطاع خطوط الهاتف، وقلبه يحدثه بأمرٍ قدري سيحدث في الطريق، لدرجة انه فكر في العودة تشاؤماً من أي مكروه قد يصيبه. لأن كل الأجواء كانت تنذر بعملية عسكرية تجبر العماد عون على ترك قصر الرئاسة في بعبدا. وما جعل هذه الأجواء شبه يقينية هو حلول وحدات قائد الجيش التابع لرئيس الجمهورية المنتخب، محل «القوات اللبنانية» المتواجدة على خطوط التماس حول المنطقة العونية الصغيرة. لكن فادي قرر أن يكمل نصف الطريق الذي بدأه.

وصل فادي إلى مشارف بيت مري، ثم دخل إلى إحدى طرقاتها الداخلية، ولاح له مشهد كان يمكن أن يمر بشكل عادي، لولا حالة الانتباه الغريبة التي أصابت شبكة أعصابه.

المشهد كان على بعد خمسين متراً، وفيه رجل يفتح صندوق سيارته ويضع حقيبة فيها، ثم يغلقه ويتجه إلى داخل البناية التي تقف سيارته بجوارها.

أبطأ فادي سيارته، واجتاز الخمسين متراً وهو يفكر في

أمرٍ خرافي. وترجم تفكيره بسرعة غريبة وهو يفتح تابلو السيارة ويتأكد من وجود مسدسه. ثم رجع عند أول نقطة تسمح له بالعودة، وعندما وصل إلى سيارة الرجل إياه، أوقف سيارته ومحركها لا يزال دائراً، وترجّل ووقف مباشرة أمام صندوق السيارة الأخرى، واطلق رصاصة على القفل، ورفع غطاء الصندوق وأخذ الحقيبة.

رجع فادي إلى سيارته بسرعة، ووضع الحقيبة تحت المقعد المجاور له، وانطلق بسرعة، وعند أول كثافة عشبية ألقى بمسدسه. وعند أول حاجز للجيش وقف ونبض قلبه يكاد يسمعه الجندي الواقف على الحاجز، لكن الجندي أشار له بيده ان يستمر في السير.

وعند ثاني وآخر نقطة عسكرية، تفصله عن المنطقة التي تسيطر عليها «القوات اللبنانية»، كان فادي على يقين بوصول أخبار صوت الرصاصة في بيت مري إلى الحاجز، لكن الإشارة الثانية بالمرور، جعلته يعبر جحيم هواجسه بسلام.

احتار فادي إلى أين يذهب، إلى عمله في الأشرفية، أم إلى المأوى في عين الرمانة؟ وضحك رغباً عندما تخيّل ان تكون الحقيبة مفخخة بقنبلة موقوتة، وأن الرجل تركها في صندوق السيارة، ودخل البناية للتمويه فقط، على أن يغادر بعد دقائق، أو زيارة سريعة تنفجر السيارة بعدها.

وقرر الاتجاه إلى المأوى، ثم أوقف السيارة في الباحة الكبيرة الملاصقة له، التي اتخذها الناس مكباً للنفايات،

وذهب إلى دكان، هو الوحيد الذي يملك هاتفاً يعمل، وأبلغ الشركة في بيت مري اعتذاره عن عدم الحضور لعطل أصاب سيارته، وحاول تنسّم أي خبر من محدثه عن أي شيء أمني حدث عندهم صباحاً، لكن الأخير قال له إن الأجواء هادئة فعلاً.

رجع فادي إلى سيارته، ورفعها تمويهاً كأنه يغيّر دولاباً، وأخرج أكبر مفك في عدته وبدأ محاولات فتح الحقيبة، حتى لا يؤذي أمه فيما لو كانت مفخخة، والعرق يتصبب منه من الرعب والترقب. وبعد عدة محاولات كسر القفلين وفتحها، وصُعق برؤية عشرات الألوف من الدولارات بداخلها.

أغلق فادي الحقيبة، وأعاد سيارته إلى وضعها الطبيعي، وذهب إلى الغرفة في المأوى وهو يرتجف، ولم يجد أمه وأدرك انها في المطبخ الكبير تطهي الطعام، لأنها لم تغلق الباب بالمفتاح، ووضع الحقيبة في مكان أمين، بعيداً عن متناول يد أمه، على الرغم من صغر المساحة التي يعيشان فيها. وذهب ليشتري جريدة يخفي توتره ورجفته بقراءتها. وعند عودته وجد أمه على وشك مغادرة الغرفة إلى المطبخ، لأنها تمسك مرطبان بهار بيدها.

ـ بكّرت في العودة اليوم؟

ـ رأسي يؤلمني قليلاً.

ـ ولونك أصفر كثيراً.

أكملت أمه طريقها إلى المطبخ، وجلس هو يتصفح

الجريدة، وعيناه لا ترى سوى العناوين والصور. تصفح الجريدة مرات عدة، وعادت أمه بعد فترة حاملة طنجرة الطعام، ومعها ساكنة أخرى تساعدها بحمل الأغراض المصاحبة للطبخ.

ـ هل تريد أن تأكل، أو ان الوقت ما زال مبكراً؟

ـ صراحة، لا شهية لي اليوم.

ـ وجهك شاحب فعلاً. ثم اقتربت منه ووضعت يدها على جبينه.

ـ وعرقك بارد. هل تريد فنجان قهوة؟

ـ أفضّل الشاي، لأنني سآخذ حبة للصداع.

ـ يا ابني. ماذا بك؟

فهم فادي قصد أمه، وما تريد الوصول إليه وهو الحديث عن تيرا. وقطع عليها الطريق بجواب حاسم:

ـ أفكر في السفر واستعد له. هذا ما يشغلني فعلاً.

هزّت المرأة القصيرة النحيفة رأسها هزة العليم بالأمر، ونظرت إليه زامّة شفيتها، وأخذت الشاي وركوة بها ماء وذهبت إلى المطبخ. وعاد فادي يتلهى بقراءة الجريدة، وسماع الراديو في الوقت نفسه. ثم أخذ يقرأ في كتاب عن الكمبيوتر، وشدّه خبر في نشرة أخبار الثانية عشرة والربع، يفيد أن صرّافاً تعرض للسرقة في منطقة بيت مري بعدما هاجم سيارته لصوص، يشك في انهم يراقبونه منذ فترة، واستولوا على مبلغ ١٤٦ ألف دولار منها.

ـ من الغريب أن يكون إنجازي المهم في هذا البلد سرقة.

قال فادي لنفسه، وفكّر في ما يمكن أن يفعله لإخفاء هذا المبلغ الكبير، وكاد يقوم ليرقص، لكنه تذكّر أن أمه الجالسة إلى جانبه تقاسمه النظر إلى الصور في الجريدة، وعاد إلى كتابه ينظر إليه من دون أن يرى حرفاً منه.

***

راودت فادي مشاعر متناقضة، لم يختبرها من قبل في حياته، بسبب ما حدث في أقل من دقيقة، وألوف الدولارات الموجودة في حقيبة تحت ثيابه في الخزانة. لم يكن يصدق أحياناً، عند استرجاع شريط الوقائع، انه هو الذي فعل ما حدث.

وعلى الرغم من فرحه الغامر بانتهاء أزمته المالية، التي همّشته تجاه من يحب، وجعلته يحس بالدونية بين الناس، إلا انه وقع أسير إحساس مضاد آخر، لم يقدر أن يتجنبه. إحساسان جعلاه ينوء بعبء نفساني كبير، لدرجة انه بعد أيام، وجد نفسه تختار داني، من بين الذين يعرفهم، لتفضي له بمتاعبها ووساوسها.

اندهش فادي كثيراً من هذا الاختيار، وفتش دهاليز ذاكرته عن سببه، لدقة الموضوع، ووجد ان اختياره العفوي ترجمة لعصامية وكفاح شخص مثله ـ على الأقل قبل السرقة ـ مشى في طرق كثيرة ولم يجد حلاً. مستوحد، نائم في منزله على

سرير يشبه التابوت. جامع كل التناقضات ما عدا إضمار الأذى. كما وجد انه استبعد ريمون خجلاً من رواية ما حدث له.

كانت ردة فعل داني الأولى على ما سمعه، هي إطلاق ضحكته التي لا صوت لها، والنظر بعينيه الزجاجيتين طويلاً في عينيّ فادي.

ـ لم أكن أعرف انك بهذه الصلابة.

ـ صلابة أم إجرام؟

ـ صلابة وسرعة مذهلة في التفكير.

سكت فادي ولم يقل أي كلمة. وأخذ داني يحك ما فوق أذنه بابهامه، ونفخ الهواء الذي في رئتيه دفعة واحدة وقال لفادي:

ـ لنذهب إلى مقهى «مكسيمز» المُكيّف. الهواء البارد سيجعلني أفكر بطريقة أفضل.

ـ معك حق. الرطوبة عالية، على الرغم من أن اليوم هو بداية تشرين الأول.

وذهبا بسيارة فادي إلى المقهى، وفي الطريق كسر داني صمتهما وقال:

ـ هل أنت خائف؟

ـ أنام نوماً متقطعاً، لكنني لست خائفاً.

ـ ولماذا أنت قلق. هل رآك أحد. هل رأى انسان سيارتك؟

ـ أبداً، الموضوع تم في لحظات. وأنت تعرف أن بيت مري شبه خالية هذه الأيام.

ـ يا فادي، أوقف السيارة في الزاروب، لأن ساحة ساسين تقع عليها قذائف أحياناً.

وفي المقهى شبه الخالي إلاّ من زوجين عجوزين، يجلسان في الزاوية الداخلية البعيدة عن الواجهة الزجاجية، عاد الصديقان إلى الحديث.

ـ أظن أن القلق الليلي سببه عقدة الذنب. قال داني.

ـ يجوز

ـ هل أخبرت أمك؟

ـ أمي تنام وصور القديسين فوق رأسها. مستحيل أن أخبرها. هل تصدق انها تعتبر فوائد البنوك حرام؟

ـ عقلية متحجرة. لا تدع عقدة الذنب تشوش على عقلك.

ـ لم أفعل شيئاً يشبه ذلك في حياتي من قبل.

تنهد داني وعاد ليحدّق في عينيّ فادي مباشرة، وقال:

ـ هل تعلم اننا في هذا البلد، نتغذى بدماء بعضنا.

ـ أصبحنا وحوشاً كاسرة.

ـ وأنت بما فعلته، أصبحت كلباً أو قطة بين هذه الوحوش.

ـ (مبتسماً) ماذا تعني؟

ـ لم تصبح وحشاً، لكنك دخلت نادي ما دون مستوى البشر.

ـ ولذلك يعذبني ضميري.

ـ لا تضخم الأمور! هذا ليس كل رأسمال الرجل. ولو لم تؤجر بعض الرهبانيات ما لديها من أماكن بالنقود للمهجرين المسيحيين، لطلبت منك التبرع لهم حتى يرتاح ضميرك.

ـ بدأت أفهم لماذا يقول أبو ريمون عنك شيطان.

وأكمل داني وكأنه لم يسمع:

ـ وإذا أحرقت المال من أجل ضميرك، ستموت غيظاً.

ـ هذا صحيح.

ـ المهم. بعض الناس يسافر من أجل النقود. وأنت؟

ـ فهمت ما تقصده. سأسافر لأنني ملّيت العيش مع الموت والخطر. كيف سأرتقي كإنسان هنا.

ـ والأهم. ماذا ستفعل بالمال؟

ـ سيكون معي طبعاً.

ـ خطأ جسيم. ستثير شك الألمان فيك.

ـ لماذا؟

ـ أنت رجل عادي ولست متمولاً. السفارة تعلم ذلك.

ـ وما هو الحل؟

ـ تترك الجزء الأكبر منه هنا.

ـ أين؟
ـ دعني أفكر.

وفكر داني بعمق وهدوء، وهو يجلس منحنياً ومركزاً نظره إلى الأرض. وبعد برهة رفع رأسه وقال:

ـ هل تعلم أن رأي أمك عن الفوائد ألهمني؟
ـ كيف؟
ـ أعرف صديقاً يعمل في بنك لديه خزائن حديدية. سأقول له هذا الرأي، وأفسر له حصولكم على المال من بيع أرض. وهكذا تضع المال في خزنة حديدية.
ـ فكرة هائلة لو نجحت.
ـ ستنجح. وماذا ستفعل بقصة الحب التي تعيشها؟
ـ شبه منتهية. هل تعرف يا داني أنَّ هذه النقود ستنقذني من حالة الإذلال التي عشتها. سأبدأ كل شيء من جديد.
ـ أشك في ذلك.
ـ تشك في ماذا؟
ـ في إنك قادر على الاستغناء عن الحب.
ـ يا داني. لقد تعاملت معها بصدق وإخلاص، فاعتبرت هي انني أهنت أنوثتها.
ـ هل تعرف أسطورة...

وقاطعه فادي برفع ذراعه اليمنى، وحركة إصغاء شديدة وقال:

ـ يا داني. لماذا رُفع صوت الراديو هكذا في المطبخ؟
ـ يبدو...

وقام داني من مجلسه وتبعه فادي، ومشيا بخطوات سريعة إلى المطبخ، وتبعهما الرجل العجوز الجالس مع زوجته في الزاوية. وطلب منهم الرجل الوحيد في الخدمة، باشارة من يده، السكون. وما سمعوه من بقية الخبر كان العدد الأولي للقتلى والجرحى.

ومن «الفلاش الأمني» التالي، عرفوا أن مسلحين من «القوات اللبنانية» أطلقوا النار على متظاهرين سلميين عونيين، آتين من منطقة المتن سيراً على الأقدام، وهم يحملون شموعاً ومشاعل، بغية «الاعتراض على ممارسة الحكم الهمجية» وعلى أثر الرمايات التي تمت عند نهر الموت، تشتت المتظاهرون في البقعة المجاورة، خصوصاً الحقول القريبة من معمل البيرة المليئة بالألغام، فكانت مجزرة، حصدت عشرين قتيلاً وخمسين جريحاً على الأقل، بعضهم في حالة خطرة.

ـ ماذا يحدث في المنطقة المسيحية يا داني؟
ـ قذارة.
ـ إنني مكتئب.
ـ هل تعرف أمك إنك عندي.
ـ نعم. لماذا؟
ـ لا يمكنك التحرك من الأشرفية إلى عين الرمانة. بعد قليل ستشتعل المحاور ولن تقدر على عبور المنطقة

الخضراء بين مستشفى «أوتيل ديو» وبدارو.

ـ هل سأنام في منزلك؟

ـ إطمئن. عندي فرشة أخرى لزوم الطوارئ.

ـ إنني مكتئب فعلاً.

ـ لننطلق بسرعة إلى المنزل. عندي زجاجة ويسكي من التي تساعد على نسيان الاكتئاب. لكن دعنا نشتري فروجاً مشوياً قبل الذهاب.

انطلق فادي بالسيارة من ساحة ساسين، نزولاً إلى منزل داني، متجنباً الطريق المكشوفة على منطقة بدارو والتي تنتهي بمعبر مستشفى «أوتيل ديو». وقبل وصولهما بلحظات، كان واضحاً أن الرمايات قد بدأت على معبر المستشفى ـ بدارو، وان أزيز الرصاص بدأ يغطي المنطقة فعلاً.

في بيت داني، كان المشهد فريداً، لا يمت بصلة للجحيم الدائر في الخارج. فقد بدأ الصديقان الأكل واحتساء الويسكي. ورفع داني كأسه:

ـ اشرب يا رجل. إذا متنا نموت مبسوطين. كأسك.

ـ هل تشرب دائماً؟

ـ المنزل يبعُد حوالى ٢٠٠ متر عن المِعبر، وإذا لم أشرب عند عزف الموسيقى، لا يمكنني النوم. هل تعلم أن الحي هنا شبه خالٍ؟

ـ وهل تنام مطمئناً، خصوصاً ان السكران ثقيل السمع والحركة؟

ـ الجيش لا يقصف عشوائياً. والغرفة التي نحن فيها، أمامها أربعة جدران. صعب أن تصل القذيفة إلى هنا.

ـ كأسك.

ـ لا أسمع أي نشرة أخبار ليلاً. أفضّل سماع الموسيقى. وأنت؟

ـ الموسيقى أفضل في حالتنا هذه.

أدار داني الراديو، وركّز الإبرة على إحدى الإذاعات التي تبث أغاني وموسيقى فقط. واستمرت سهرة الصديقين إلى منتصف الليل وهما يتحدثان ويشربان ويستمعان إلى الموسيقى. إضافة إلى القذائف المنطلقة، وانفجار الساقطة. وعرفا أنَّ الليل قد انتصف، عندما انقطعت الكهرباء بسبب توقف مولّد الحي للراحة. ثم استمرت السهرة على الشموع، لأنه داني نسي إن يشحن البطارية التي تغذي لمباته الفلورسنت. كان كل شيء يوحي أن الغد ليس يوم عمل بل قتال.

نام الصديقان بعد انطفاء مقاومة جسديهما، بسبب كمية الويسكي التي احتسياها. وفي اللحظات التي تستبق النوم فكّر فادي في حياة داني الغريبة، التي رآها وعاشها عن قرب هذه الليلة.

الغرفة الوحيدة التي يستخدمها في الشقة.. أغراض المنزل المعدودة فعلاً على قدر استعماله.. حياته المنفردة على الرغم

من أن لديه عائلة.. الطاقة المذهلة على حياة متقشفة وعرة.. الثقة المفرطة في عدم دخول أي قذيفة إلى صومعته في وسط المنزل.. تفكيره المخلص في إنقاذه شخصياً من ورطة المال الكثير.. عدم وجود امرأة في حياته.

نام فادي كأنه ميت، فقد إحساسه بزمن الكون ومكانه في باطن الأرض، حتى الفرشة التي ينام عليها فوق بلاط الغرفة. وفي لحظة واحدة، أحس أن شخصاً يضاجعه ويقتحمه، وهو لا يستطيع الحركة، وبقوة عظيمة حاول إزاحة هذا الشخص من فوقه، وهو لا يستطيع رؤيته بسبب العتمة. وأخيراً أزاحه. وانتبه فادي إلى انه ينام سطحاً وليس بطحاً، ونظر حوله وإلى نفسه بقدر ما تسمح الرؤية في الظلام وتعجب. فهو ينام بكامل ثيابه التي أعطاها له داني، وداني نفسه ينام بجواره على سريره، وشخيره ينساب بوتيرة منتظمة ضعيفة، ولا شيء مريباً في المنزل.

ـ هل يعقل أن يكون الأمر مجرد كابوس؟!

وتحسس جسده وثيابه مرة أخرى، وهو في حالة ذهول تام من نوعية الكابوس الذي هاجمه.

ـ كابوس، لا يمكن أن يكون غير ذلك.

وتحسس ثيابه التي يرتديها مرة ثالثة.

ـ كابوس، يلعن الحرب. القذارة ستجعلني أشك في أقرب الناس وأخلصهم. ستجعلني أشك في أحبائي.

حاول فادي النوم مرة أخرى، لكن الذهول منعه. ونظر إلى الساعة فوجدها تقترب من الخامسة صباحاً، وانتبه إلى وتيرة القصف التي خفّت.

- لا بد أن الوساطات قد بدأت.

ثم استسلم للنوم العميق ثانية من هول التفكير والتعب، واستيقظ على صوت داني في المطبخ يغني أغنيته الأزلية:

جيب المدفع بو انطون تانربي يلّي بيخون

- لماذا أنت مصرّ على هذه الأغنية فعلاً؟ سأله فادي بصوت مرتفع وهو لا يزال مستلقياً على فرشته.

- إنني أتسلى. هل تشرب نسكافيه معي؟

- نعم.

- هل ستذهب إلى العمل؟ يبدو أن الوساطات لم تهدأ طوال الليل، والأجواء الأمنية هادئة.

- سأذهب إلى المنزل أولاً.

- وأنا معك، لأن جولتي اليوم في عين الرمانة.

وبعد احتساء القهوة غادرا إلى عين الرمانة، وتوجّه فادي بالسيارة إلى معبر مستشفى «أوتيل ديو»، لأن معبر كنيسة السريان القريب من منزل داني، كان مخصصاً للمشاة فقط، بعدما زرعته «القوات اللبنانية» بألغام مضادة للآليات، وكان العبور بالنسبة إلى المشاة يتم بالسير بينها بكل حذر.

وصلت السيارة إلى المعبر الملاصق تماماً لمدخل المستشفى،

وكان عبارة عن مستوعبات ضخمة جداً، موضوعة بعرض الطريق لتعطيل أي هجوم بالدبابات، ويسمح فقط بمرور سيارة. وقد وضع المقاتلون رسماً كبيراً جداً على قماشة بيضاء للمسيح القائم من بين الأموات.

حركة السير معدومة، لدرجة أن سيارة فادي كانت وحدها على المعبر. وأوقفها فادي بجوار عنصر الميليشيا الواقف، لسماع إذن المرور.

ـ لوين رايحيين الشباب؟ سأل العنصر.

ـ عين الرمانة. أجاب فادي.

ـ دخلك.. كنت تطلع عالقصر... ما هيك؟ سأل العنصر فادي.

وجمد الأخير من السؤال، وهمّ بالرد، إلا أن داني تدخل.

ـ كان بيطلع وقت يلّي كان صاحبك (يقصد قائد «القوات اللبنانية») بيطلع. كان يوقّتها بالنهار نفسه!

اندهش فادي من الرد الصاعق، وتوقع حدوث مشكلة كبيرة. لكن رد العنصر صعقه مرة أخرى:

ـ داني. ما تبلّش عبكرة الصبح!

ـ عمتتزانخو عالعالم بهالطريقة يا بغل؟ سأله داني.

ـ وطّي صوتك يا حيوان، مش الكل بيحبك هون.

ـ شو القصة... فهّمني... رايقة اليوم؟

ـ لأن بابلو بوانتي (السفير البابوي) على الطرقات عمبيعمل وساطاتو. إرجع. الظهريات رح تكون

الأمور أسوأ.

ـ فادي. كفّي انت وروح عالبيت. وأنا رح برجع.

ـ انت أكيد من كلامه؟

ـ أكيد. هالبغل بيعرف كتير.

وغادر داني السيارة وهو يغني:

مـين غـيـرك هـز المسـمـار   يـا قـائـد عـون الجـبـار

وصرخ فيه العنصر:

ـ رح يقوصوك يا حيوان شي نهار.

ـ انتبه لي عالشاب كل ما يجي لهون، إذا بقيت طيب وما متت!

قال داني للعنصر، ثم انحنى حتى مستوى شباك السيارة وخاطب فادي:

ـ فادي، لا تتحرك اليوم. الحالة غير مطمئنة، وأنا رح أمرق عالمستشفى شوف إذا ريمون مزروب فيها. باي.

انطلق فادي بسيارته نزولاً من المعبر، ووصل إلى منطقة قصر العدل، ومنها إلى شارع بدارو، وإحساس الخوف يملأ قلبه لأنه كان وحيداً في طريق مقفرة، ووقف على معبر الجيش الذي كان في زاروب جانبي، وأذنوا له بالمرور واتجه إلى المأوى.

ومن المؤكد أن صورة داني، وما فعله وقاله وغنّاه على المعبر لم تفارق عقله أثناء تحركه وصولاً إلى غرفته، التي كانت

تنتظره فيها أمه، وهي في منتهى التوتر.

ولم يغادر فادي الغرفة في هذا اليوم. وفكّر كثيراً في ما يقوله بعضهم عن أن داني رجل مخابرات، لأنه يستحيل على أي إنسان عادي أن يتلاسن مع عناصر الميليشيا بهذا الأسلوب ولا يؤذوه.

لكنه تذكر كيف أن داني احتد في إحدى المناقشات في بيت ريمون، وكان يجلس بعض الغرباء، على العماد عون ووصفه بالعشوائي الذي يلف في فلكه مجموعة موتورين حاقدين على «القوات اللبنانية» ليس إلا. ولم يخف ولم يكن الحرص مصاحباً لأي عبارة من عباراته.

كان من الممكن استحضار عدد من الشكوك تثبت أن داني رجل مخابرات. لكن الواقع يقول إنه لا يضمر الأذى لأي مخلوق.

وهذه وحدها الوزنة التي ترجّح براءته في قلب فادي.

***

في الثالث من تشرين الأول ذهب فادي إلى عمله لآخر مرة، ليقبض مستحقاته المالية، ويسلّم ما في حوزته من آلات وبعض الأجهزة قيد التصليح بين يديه. وغادر مقر عمله وشريط الذكريات يدور بهدوء في مخيلته.

كيف جاء إلى هذا العمل الذي أحبه، واستمر فيه أيام الخطر أثناء الذهاب والعودة إلى المنزل، والاضطرار إلى النوم

أحياناً في الشركة عند زيادة حدّة الاشتباكات والتقاصف المدفعي.

تيرا... الحب.. الأمل... الفشل... طلب الهجرة... السرقة... الموافقة على الهجرة. وانسابت دمعة على خده.

اتجه فادي بسيارته إلى جل الديب، ليتصل بتيرا من هناك، لأن الحداد العام أعلِنَ في ذلك اليوم في انطلياس وجل الديب، وذلك يعني احتمال وجودها في المنزل. ووصل إلى هناك واتصل بها من السنترال.

ـ ابن حلال، لأنني على وشك النزول من البيت.

ـ كيف صحتك وأحوالك؟

ـ جيدة. منذ فترة لم أسمعك ولم أرك.

ـ مشغول. إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ هل تتكلم من العمل؟

ـ من السنترال في الحي عندكم.

ـ دقائق وأكون عندك. انتظرني في «المكان نفسه».

ذهب فادي إلى موقف السيارات، الذي طالما انتظرها فيه. ولأن اليوم كان للذكريات، تذكر الأيام التي كان ينتظرها فيها في المكان نفسه، ليذهبا إلى البحر أو السينما.. للنزهة أو المطعم. وانتبه إلى أنه ينتظرها لأول مرة من دون هدف محدد. وتجنّب اختمار فكرة في ذهنه عن كيفيه رؤيتها له والإحساس الذي يحدث عندها، عندما تأتي إلى الموعد الحالي.

ووصلت تيرا ونزلت من سيارتها، واتجهت إلى فادي الذي تقدم بدوره لمصافحتها. صافحته تيرا وإحساس غريب يسيطر على مشاعرها، منذ اللحظة التي رأته فيها. كان هناك شيء تغير فيه، لم تستطع إدراكه في لحظات اللقاء الأولى.

ـ هاي فادي. لماذا أنت مختفٍ؟

ـ أنا آسف لسماع ما حدث لخالتك.

ـ هل أنت الذي أخذ الورقة؟

ـ نعم. فكرة ذكية. أحاسيس سوداء راودتني عندما لم تأتِ.

ـ يرحمها الله. كانت إنسانة عطوفة جداً. لكنك لم تجبني... أين أنت؟

ـ وهل الأحداث التي تمر تجعل أحداً يظهر؟

ـ جنون يا فادي. هل تعلم أن منى في مستشفى الحايك؟

ـ لماذا؟

ـ لأنها إحدى المصابات في «نهر الموت».

ـ ماذا؟

ـ كما أقول لك. وأنا ذاهبة إلى رؤيتها الآن.

ـ هل أستطيع الذهاب معك؟

ـ بكل تأكيد.

تركت تيرا سيارتها في الموقف، وذهبت معه بسيارته. وعرف منها في الطريق ان منى كانت مع المشاركين في

التظاهرة السلمية التي نظمها محبو العماد عون. وسارت الأمور بشكل طبيعي، حتى وصلت إلى جسر نهر الموت، وكان المتظاهرون يحملون الشموع والمشاعل، ولا يوجد بينهم أي مسلح أو عنصر للجيش، ثم حدث ما تناقلته وكالات الأنباء والإذاعات.

إن إصابة منى دقيقة جداً، لأن شظية صغيرة دخلت إلى مكان أنثوي عندها، وقد نُقلت إلى المستشفى وهي تنزف بشدة. وبطريقة عجائبية أمّنوا لها دماً، لأن المستشفيات تعاني أزمة نقص في الدم. واجتازت مرحلة الخطر على حياتها، لكن الطبيب قال إنها لا يمكن أن تحمل مستقبلاً، لأن الاصابة سببت لها عطلاً نسائياً يختص بالعملية التي تحدث في المبيض.

ـ وهل حالتها الصحية مستقرة الآن؟

ـ نعم، اجتازت الصدمة النفسانية، والقلب والرئتان يعملون بشكل طبيعي.

ـ مسكينة منى.

ـ إنها لا تعرف بالضرر الذي أصابها حتى الآن.

ـ الأمر كله مؤسف ومحزن.

ـ وما هي أخبارك؟

عَرَفتْ منه أنه انهى ارتباطه بعمله، وسيستغل وقت فراغه للتحضير لسفره، وتهئية ظروف أفضل لأمه قبل ذلك، إضافة إلى تكثيف قراءاته بالألمانية وبصوت مسموع، وأن أعظم ما

يخافه هو أن يموت قبل سفره، لكثرة ما يسمع من أخبار وفيات وإصابات.

كان فادي يتكلم وتيرا تسمعه، ومع كل عبارة كان يقولها كانت تزداد يقيناً أن شيئاً ما قد تغيّر فيه، لكنها لم تقدر على حسم أمرها وتعرف ما هو ذلك الشيء.

وصلا إلى المستشفى وتوجّها إلى غرفة منى، المستلقية بسكينة واسترخاء، لا تعلم ماذا ينتظرها في المستقبل. واندهشت تيرا كثيراً عندما تعمدت منى أن تتحامل على نفسها وتجلس في سريرها أمام فادي، وتشدّه إليها وهو يصافحها وتقبله على خدّيه، وهو يبادلها الأمر نفسه.

- إنني سعيدة لرؤيتكما سوياً. قالت منى.
- حمداً لله على السلامة. وأرجو أن تكوني الآن بخير.
- أنا بخير، لكنني حتى الآن في ذهول مما حدث.
- أمر طبيعي، لأن هذه الإصابة لرجال في ميدان القتال.
- وما زاد خوفي، هو انني بقيت أكثر من ساعة أنزف على الأرض، من دون أن ينتبه إليّ أحد.
- كيف.
- لم أشعر بالإصابة فوراً، وركضت مع الهاربين باتجاه زاروب معتم يؤدي إلى البحر، وتفرق الناس ثم شعرت بالإصابة وبدأت قواي تضعف ووقعت على الأرض.

دخلت سيدة كان واضحاً انها آتية من داخل المستشفى وليس خارجها. وخلال حديث منى، فقالت تيرا إنها أم منى.

ـ أهلاً. . . أهلاً تيرا. أهلاً يا أستاذ. .

ـ فادي انطون. عرّف فادي عن نفسه.

وبدأ الحديث مرة أخرى بعد التعارف والمجاملات.

ـ إن شاء الله مرتاحة اليوم؟ سألت تيرا.

ـ إنني قلقة لأنهم يكذبون عليّ. قالت منى.

ـ ولماذا يكذبون؟ سألها فادي.

ـ مكان العملية وإحساس داخلي يقولان لي ذلك.

ـ الشظية يمكن أن تدخل أي مكان. والمهم ألاّ يموت الإنسان.

ـ الموت ليس مشكلة. المشكلة أن يُقعد الإنسان.

ـ لقد أصبحتِ مثل الحصان. كيف ستقعدين؟

بدأت عينا منى تدمعان، واقتربت تيرا منها لتواسيها، بينما اتجه فادي إلى الشباك لحساسية الموقف. فماذا يستطيع أن يقول في هكذا موقف دقيق، وهو ليس أخاها أو زوجها.

كان متأثراً فعلاً مما حدث لهذه الفتاة الشجاعة، التي طالما قالت إن العماد عون هو الحل، ودفعها إيمانها إلى قدرها الغريب الذي تحسه الآن، لكنها لا تستطيع الجزم بما حدث. أحس فعلاً أن جو الغرفة يزداد اختناقاً، وحاول كسر هذه الحدة، وسار باتجاه منى قائلاً:

ـ ليس مهماً أن يعلن بابلو بوانتي خجله من كونه إنساناً، وهو يبحث عن حل بين المتقاتلين. المهم أن يجد حلاً.

ـ الحل صعب. والجنرال نفسه ضائع. لقد رأيته عن قرب في القصر الأسبوع الماضي. أجابته منى.

ـ لا أعرف ماذا أقول. متى ستخرجين من المستشفى؟

ـ بعد ثلاثة أيام على أبعد تقدير.

ـ إذاً الزيارة القادمة في المنزل.

ـ أنت وتيرا.

ـ (وهو ينظر إلى تيرا) أكيد.

وبدأت أم منى حديثاً جانبياً مع تيرا وابنتها، تعمد فادي أثناءه النظر من النافذة. وسمع تيرا تستأذن بصوت مرتفع نسبياً ليسمع هو. وقبل مغادرة الغرفة أمسك فادي بيد أم منى، وسار بها إلى خارج الغرفة وهو يستأذن من تيرا ومنى، وخرجت أمها معه وهي مندهشة.

ـ يا سيدة أم منى. هل هناك أمل لو عولجت منى في الخارج؟

ـ لا يا بني. الحكيم قال ذلك.

ـ لو ظهر أمل ولو ضئيل مستقبلاً أعلميني. أعرف شخصاً مستعداً لأن يدفع عشرين ألف دولار لحالة إنسانية.

ـ لن أنسى. وأشكرك.

ـ وهذا الموضوع يظل سراً بيننا.

ـ حسب ما تريد.

وخرج فادي وتيرا من المستشفى، وقاد سيارته في بداية مشوار العودة وهو صامت. كان واضحاً انه مستغرق في أفكاره، وكانت تيرا تتأمله بهدوء وهي تشعر بأن شيئاً، قد مات فيه، وأنَّ رائحة حضوره تغيرت.

قد يكون الشيء الذي مات فيه هو نظرته المجبولة بالشهوة والحب تجاهها. وقد تكون البراءة. ولم تدرِ لماذا أتت صفة البراءة إلى عقلها. أما رائحة حضوره في كل حواسها، فكان تبدّلها يتمثل في حالة القوة النفسانية التي يعيشها، وكأن حالة الانهيار التي وقع فيها أخيراً، كانت نوبة أفاق منها. وعلى الرغم من فرح تيرا بهذه الصورة الأفضل التي تراه فيها، لم تعرف لماذا جفلت منه لأول مرة في حياتها.

وجعلها صوته، الذي تغيّر أيضاً وتخلص من العصبية، تستعيد وعيها وتفيق من تأملاتها، والصور التي تجمعها وتركّبها، لتخرج بحكم مقنع على التغيير الذي حدث له.

ـ هل تودين الذهاب إلى أي مكان، أم العودة إلى المنزل؟

ـ وهل عندك شيء لتقوله لي؟

ـ تيرا... إدّعيتِ انني هدمت الحب بيننا. فلا تعكرين صفو الصداقة.

ـ لم أدّع ولم أقل شيئاً. انت الذي فعل كل شيء.

ـ أنا مقتنع بما تقولينه، وأتعامل كصديق بإخلاص.
فهل سيهدم الإخلاص الصداقة هذه المرة أيضاً؟

ـ أمور كثيرة فيك قد تغيرت.

أحس فادي أنها تبكي، ونظر إليها، لأنه لم يكن ينظر أبداً إلى من يجلس بجواره أثناء القيادة. وكانت تبكي فعلاً من دون صوت. وعاد ينظر إلى الطريق.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أعرف.

ومدّت يدها إلى حقيبة السيارة وفتحتها، ولم تجد المسدس فيه.

ـ أين مسدسك؟

ـ كل البلد تسألني عنه. هل تريدين اغتيالي (ضاحكاً)؟

ـ أسألك ببساطة: أين هو؟

ـ ألقيته في الزبالة. لم أعد بحاجة إليه.

ـ واضح، معنوياتك أصبحت مرتفعة.

ـ ربما بسبب النقود.

ـ نقود؟! أي نقود؟

بسرعة استدرك فادي خطأه الفادح...

ـ تعويضي. كان مجلس الإدارة كريماً جداً معي.
أعطوني أكثر بكثير مما استحقه. إلى أين تودين الذهاب؟

ـ إلى محل العصير في جل الديب. لأكون قريبة من

المنزل.

- هل نسيتِ الحداد العام؟

- نسيت فعلاً. إنه مغلق اليوم.

- هل نذهب إلى مقهى «الكاستيل» في الكسليك؟

- ونعبر حاجز «القوات اللبنانية»؟

- منذ شهور ونحن نمرّ ولم يأكلونا.

قواعد اللعبة الحربية كانت عجيبة حقاً في لبنان. فمجرد العبور من المنطقة الخضراء بين المتحاربين، والوصول إلى زوق مصبح، معناه انتقال المرء من الاضطراب إلى الراحة والنسيان الموقت.

محلات القمار.. سينمات.. مقاه.. معامل... سوبرماركت.. شركات تأمين.. محلات بيع زهور.. بنوك. شعب يتيم لا يموت.

وقد يكون الإنسان جالساً في مقهى والموسيقى الحالمة أو الصاخبة حوله، وإذا بقذيفة تدخل وتخربط الديكور فقط. لأن كل شيء سيستمر غداً والزجاج سيتغير وكذلك الكراسي والطاولات وطلاء الجدران، ما عدا أصحاب الحظ السيئ الذين ماتوا. وحدهم لن يكونوا موجودين ولن يروا شيئاً.

- هل تذكر من رأينا في أول مرة أتينا إلى هنا؟

سألت تيرا فادي وهما جالسان في مقهى «كاستيل»، والشوارع شبه خالية من السيارات.

- مني.

ـ مسكينة فعلاً. ضربة موجعة من القدر.
ـ أرجو منكِ في الأيام القليلة المقبلة، مساعدتي في التفكير بما يلزمني للسفر.
ـ السفر؟ طبعاً سأساعدك.. لكن كيف؟
ـ أمي لا تستطيع في هذه الظروف ان تتجول معي في المحلات. والموضوع يحتاج لتفكير امرأة.
ـ اتكل عليَّ. ما هو إحساسك فعلاً يا فادي؟
ـ ليس سهلاً أن يترك الإنسان أرضه. لكن الحياة أصبحت صعبة جداً هنا.
ـ أي مدينة ستقصد.
ـ هانوفر.
ـ هل لديك أقارب هناك.
ـ لا أحد. كل ما أعرفه أنها مدينة معارض وشركات، فيها فرص عمل كثيرة. ودائماً المدن البعيدة عن العواصم أرخص.
ـ هل تحس بأنك ستعود؟
ـ لا أظن. بعد استقراري هناك، سأعود لمصاحبة أمي.

بدا واضحاً تصميمه وانزعاجه، لكنه كان يحاول إخفاء الإزعاج. وكانت عيناه حمراوين، لكن الدموع ترفض مغادرتهما.

بعد جلسة هادئة، أعاد فادي تيرا إلى الموقف حيث تركت سيارتها، وكانا صامتين طوال الطريق، وقبل وصولهما قطعت

هي الصمت وقالت له:
ـ أخبرني بكل ما تريده من مساعدة ولا تخجل.
ـ تخيلي أنك ستسافرين وفكري في ما ستحتاجين إليه، لنشتريه سوياً لكن لرجل وليس لفتاة.
ـ اتفقنا (وهي تبتسم) متى سأراك؟
ـ وقتي ملكٌ لي الآن. سأتصل بك في العمل أو في المنزل. هل يزعجك ذلك.
ـ لا إزعاج بين الأصدقاء.

عاد فادي إلى المأوى مرهقاً، من تناقضات المشاهد والأحاسيس التي انطبعت في شبكة أعصابه. تناول الغذاء مع أمه التي كانت تنتظره، ثم نام بعد الغذاء مباشرة، لكي يذهب إلى ريمون وهو مرتاح مساءً.

وبغتةً، أحس أن شخصاً لا يراه يضاجعه ويقتحمه، وأنه غير قادر، هذه المرة، على إزاحته من فوقه. وحاول بجهد كبير إزاحته، وظن أن دهراً قد مرّ قبل أن يزيحه من فوقه. واستيقظ من نومه ليجد أمه واقفة بجانبه ولسانها مربوط من الدهشة.

ـ ولا مرة رأيتك مزعوجاً بنومتك، مثل اليوم.
ـ كابوس، للمرة الثانية يهاجمني يا أمي.
ـ انظري إلى العرق الذي يرشح منك. كابوس شو يا فادي؟
ـ كابوس.

ـ ربما تكون منزعجاً لأنك مسافر؟

ـ لا أظن. كل يلّي بعرفو إنو في كابوس بيزعجني.

ـ هل ترغب بزيارة خوري المأوى؟

ـ وشو علاقة الخوري بالكابوس؟

ـ بيجوز عندو حل.

ـ الخوري عندو حل للكابوس؟

ـ الإنسان غير الكمبيوتر. الإنسان روح وجسد. سماع مني، الخوري ممكن يعطيك حلاً.

ـ كما تريدين.

ـ مش متل ما بدّي. الانجيل بيقول إن هناك أرواحاً طاهرة وأرواحاً نجسة.

ذهب فادي إلى كفرشيما بعد الظهر، وهو منزعج من الكابوس الذي يهاجمه كوحش لا سمات له. حاول أن يتذكر حتى مجرد لون يراه أثناء لحظات الكابوس، فلم يتذكر سوى العتمة المطبقة الحالكة، وعملية مضاجعته واقتحامه التي يحس بها بوضوح ولا يراها.

استأنس فادي كثيراً ـ كالعادة ـ بريمون وأبيه. وروى لهما وهو يضحك تفاصيل ما حدث على معبر المستشفى، وكيف يتناقض ذلك مع ما يقوله بعض الناس عن داني.

وقال ريمون بهدوئه المعهود، وبألفاظ لم يعهدها فادي في كلماته:

ـ ليك يا فادي، سبّاط داني أنظف من شعر ... كتار

بالبلد. وأنت تعرف قصدي بكلمة . . . .

ـ أنت وأنا نعرف أنه نظيف.

ـ بتعرف إنو داني أحياناً ما بيكون بجيبته ولا ليرة، لأنو الأحوال الأمنية ما بتساعدو يلم مصرياتو من السوق؟

ـ معقول؟

ـ بتعرف إنو داني إجا لعندي عالمستشفى. منشان يجي معي لهون، وبلش وعظاتو بشباب الميليشيا المصابين، لدرجة إنو كان رح يتقوص نهارا.

ـ انا بحبو كتير.

وقال أبو ريمون: ونحنا منحبو كتير. هوّي عقلاتو هيك. مرة قال لناس عونيين، وقدامي، إن الجنرال وقعنا بأكبر ورطة، لأنه وقف في نصف الطريق، وما كفّى عالقوات، وأشرفلو إنو ينتحر.

ـ بيظن إنو بيقوم بعمل رسولي. قال فادي.

ـ غلطان فادي، قال ريمون ثم زاد: داني مرهق فعلاً. شغلو. . . حياتو. . . إيمانو انهز فعلاً. . . ضاع. وما تنسى إنو سكّير لكن جتتو قوية، ومش مبينّ عليه لحدية هلّق.

ـ بيشرب تيهرب من الواقع.

ـ بلد خرا. بتعرف إنوا أنا محسوب عالقوات، لأنو أهالي الضيعة قوتجية؟

ـ وانت ما بتطيق ريحتن.

ـ مظبوط. ولا ريحة الجنرال. لكن أنا مجبور إعملن عمليات، وقطّبن بكل ضمير.

وفجأة ضحك ريمون بصوت عالٍ، وانفرجت أساريره، وأشار بيده إلى الخارج، وانتبه أبو وفادي على صوت يغني:

الشعب اللبناني عناده زاد بقوة عماده

من غيرك هز المسمار يا قائد عون الجبار

ـ بس يغني بهالطريقة، معناها جاي مشي، أو أوتو ستوب، وما معو مصاري. بليز فادي، وصّلو عاطريقك أنت وراجع. قال ريمون.

***

أشار خوري المأوى على أم فادي، بضرورة عرضه على كاهن متخصص بهذه الأمور، ويستطيع أن يعرف إذا كان الشاب مصاباً بأمر شيطاني أو نجس يؤذيه في منامه.

ذهب فادي مع خوري المأوى إلى الكاهن. وباح له في لقاء منفرد بما يحدث له، وطلب منه اعتبار ما قاله، كأنه صدر منه على كرسي اعتراف. ووعده الكاهن بعدم إفصاح سره لأحد، حتى لأمه. وحدد موعداً له، يأتي فيه نظيفاً معطراً لاجراء طقوس معينة، وبعدها يمكنه معرفة ما يحدث.

ذهب فادي في الموعد وهو مضطرب، ولم يدرِ لماذا تذكر أيام طفولته في مرجعيون. تداعت صور من الذاكرة

وحضرت أمامه.

كنيسة الضيعة العتيقة... أيام دراسته الأولى.. رفاقه... الأعياد.. التباري في دق جرس الكنيسة.. قداس عيد الميلاد... الهجمة ليلة عيد القيام.. البخور.. أبونا حداد..

مناسبات حضرها دائماً من دون أب وهو صغير. وحضرها كضيف آت في زيارة، عندما كان في المدرسة الداخلية.

كان الكاهن منتظراً برداء معين، وكتاب في يده، والبخور يملأ غرفته البعيدة عن الكنيسة. غرفة يسبغ الهدوء والورود المزروعة حولها، إضافة إلى صورة كبيرة ليسوع، عليها جلال لم يشاهد مثله فادي منذ فترة بعيدة.

وأخذ فادي انطباعاً عن الكاهن هذه المرة، يختلف تماماً عن الأول. رآه هذه المرة عجوزاً قوياً.. تحيطه هالة روحانية.. وتشع من عينيه نظرات تركيز وخشوع. أما رائحته فقد كانت تشبه رائحة ورق كتاب قديم.

سأتلو صلواتي التي بدأتها منذ ساعة قبل حضورك. ومهما حصل لي أو لك لا تخف. فقد تكون روحاً شيطانية تؤذيك، ولا بد من طردها.

أكرر عليك، لا تخف لأنني مسلّح بقوة الرب يسوع. إركع هنا.

ركع فادي، وذهب الكاهن إلى ركن الغرفة، واضعاً كمية أخرى من البخور، وبدأ صلواته بوتيرة واحدة فيها قوة

وتضرّع. ومن العبارات التي حفظتها ذاكرة فادي:

«عادل أنت أيها الكائن الذي كان والذي سيكون.. لأنك حكمت هكذا... لأنهم سفكوا دم قديسين وأنبياء فأعطيتهم دماً ليشربوا.. لأنهم مستحقون... خدامه كلهيب نار... الكروبيم والسروفيم.

يا رب مَلجأً كنت لنا في دَور فدورٍ.. إذكر يا رب عار عبدك.. لماذا تحجب وجهك عني.. يا جلساً على الكروبيم أشرق..

إرحمني يا الله حسب رحمتك.. رب الجنود معنا... ملجأنا إله يعقوب. أضيء بوجهك على عبدك.. سهِّل قدامي طريقك.. إنهم يا الله... كأنه بترس تحيطه بالرضا».

كان الكاهن يضع بخوراً بعد كل فترة من الوقت. يعلو صوته أحياناً. وينخفض حيناً آخر.

وبدا واضحاً لفادي أنه مرتاح ويتلوا صلواته بعينين شبه مغلقتين. يفتحهما أحياناً لوضع المزيد من البخور، أو لالتقاط سطر من الكتاب ثم العودة إلى الذاكرة.

أنهى الكاهن صلواته وتضرعاته، وطلب من فادي النهوض والجلوس بالقرب منه.

ـ يا فادي. موضوعك بعيدٌ عن أي أمر شيطاني.

ـ وما تفسير هذا الكابوس.

ـ تفسيره علمي لا أعرفه. حدودي تقف عند هذه

النقطة.

ـ وبماذا تنصحني.

ـ بطبيب نفساني.

ـ هل تفيد الصلاة في حالتي؟

ـ كما تفيد إنسان يريد فحص قوة بصره. وأنت رجل يعمل في التقنية الحديثة وتفهم.

ـ أريد فعلاً أن أشكرك على سماع هذه الصلوات العظيمة التي لم أسمع معظمها من قبل. وما سمعته منها كان منذ سنوات بعيدة.

ـ الصلاة أمر جميل فعلاً. إنها مناجاة مع الرب. هل تصلّي أحياناً.

ـ إنني أكفر أحياناً.

ـ ظروف الناس والبلد قاسية جداً. اعتقد انك مؤمن.

ـ نعم.

ـ كفرك إذاً تنفيس لغضبك.

***

لم تغب شبه ابتسامة خفيفة عن فم تيرا، أثناء جولتها مع فادي على الأماكن التي يشتري منها ما يريده للسفر. وقد ركّزت هي على الأشياء الضرورية المفترض أنه سيحتاجها في أول فترة، ويصعب شراؤها لعدم معرفته بالأماكن والمحلات.

من جهة أخرى، سعى فادي إلى إيجاد شقة صغيرة لسكن

أمه، وتم هذا الأمر الصعب، نظراً إلى الظروف غير العادية التي كانت تعيشها المناطق المسيحية. بمساعدة داني «مختار الأشرفية»، الذي كان يعرف عن الشقق المفروشة والبيوت التي يُمكن أن تؤجر، أكثر مما يعرفه أي سمسار.

واتفق فادي مع صاحبة البناية، على الانتقال إلى المسكن الجديد في أول تشرين الثاني. ودفع لها إيجار سنة سلفاً، ما أثار دهشة أمه التي جاءت معه لترى موقع البناية، وإذا كانت الشقة تناسبها.

ـ من أين أتيت بهذه النقود، وكيف ستسافر؟

ـ إطمئني. أخذت تعويضاً كبيراً، وحصّلت نقوداً كانت لي في كذا شركة.

وعلى الرغم من أن فادي كان ينتظر السفر بفارغ الصبر، إلاّ انه بدا غير مصدقٍ لما سيحدث. كان يذهب كل مشاويره وكأنه منوّم مغناطيسياً. غابت إرادته الواعية، ودخل في مرحلة انتظار السفر نفسه، بعد أن خرج نهائياً من أحاسيسه العادية.

أصبح يقوم بزياراته ومشاويره، وإحساس المغادرة لا يفارقه. وكان أمراً طبيعياً أن يحس تجاه تيرا المشاعر نفسها.

عمّ المناطق المسيحية، منذ أوائل تشرين الأول، شعور بأن معركة لا مفر منها ستحدث، لإجبار العماد عون على التخلي عن قصر بعبدا للرئيس المنتخب. ووعد العماد مناصريه

بحرب شرسة سيخوضها للدفاع عن مناطقه، لأنه لن يبادر بالهجوم.

قال إنه سيضطر إلى الحرب بـ«سكينة المطبخ» إذا نفذت ذخيرته. وقال اللواء إدغار معلوف، أحد أركان قيادته، إن «بنادق صغيرة» حاربتهم وستحاربهم.

كان معظم الشعب في المناطق كافة متعاطفاً مع العماد، صاحب الجاذبية الكبيرة على شاشات التلفزيون، والعبارات سهلة الحفظ في ذاكرة الناس. وتجلى ذلك التعاطف في مكوث حوالى ثلاثة آلاف مواطن حول القصر لأيام عدة متواصلة، في خطوة اعتبرها بعضهم، ان العماد يحتمي بمواطنين عُزّل من السلاح ليطيل مدة الإقامة في القصر. بينما اعتبرها البعد الآخر فترة زمنية للوصول إلى حل سلمي بين الرئيس المنتخب وساكن القصر.

وطلب العماد من محبيه ليلاً في الثاني عشر من تشرين الأول، المغادرة والعودة إلى بيوتهم، بعد تعرضه لمحاولة اغتيال فاشلة، بعد ظهر اليوم نفسه، مات فيها واحد من حرسه الخاص.

استيقظ الناس فجر الثالث عشر من تشرين الأول، على هدير مدفعية «القوات اللبنانية»، وهي تقصف المنطقة غير الخاضعة لها في المناطق المسيحية. ثم فوجئوا بطائرات سبع تقصف المناطق المحيطة بقصر بعبدا، وعرفوا بعد ذلك أنها طائرات سورية.

وتأهّب الناس للحرب الشرسة التي وعدهم العماد بخوضها. وسألت أم فادي ابنها، وأجراس الكنائس تدقّ في مناطق العماد:

ـ هل تظن أنه انتهى؟

ـ لو صمد حتى العاشرة صباحاً في القصر، سيقلب المعادلة لصالحه، لأن البابا يرفض الدماء الكثيرة التي أهرقت في المناطق المسيحية.

لكن «إذاعة الجنرال» بثت بياناً بصوته بعد حوالى ساعة من بدء الهجوم، أصاب أعداءه قبل أصدقائه بالوجوم. وعُرف في ما بعد انه سجّله بعد لجوئه سياسياً إلى السفارة الفرنسية.

«نسبة إلى الظروف القتالية والسياسية الراهنة، وحقناً للدماء، وتخفيفاً للاضرار، وانقاذاً لما تبقى، أطلب من أركان قيادة الجيش، تلقي الأوامر من قيادة العماد إميل لحود».

أصابت الدهشة فادي عندما وجد أمه، التي لم تهتز يوم نسفت «القوات اللبنانية» منزلهم، تبكي بدموع غزيرة صامتة.

ـ كنت تحبينه طوال هذه المدة وأنتِ صامتة؟

ـ (من خلال دموعها) نعم يا ابني.

ـ الرجل لم يكن يملك سوى مدافعه للتفاهم مع الناس.

ـ لا يجدي مع الجنون سوى الجنون.

ـ ماذا تعني؟ هل نسيت ما أصابنا بسببه؟

ـ أعني إنه كسر شوكة ميليشيات الدروز والمسيحيين،

ولو طال باقي الميليشيات لكسر شوكتها.

فوجىء فادي مرة أخرى برد أمه، التي لم تكن تتكلم في السياسة مطلقاً. وسألها وهو على استعداد ليسمع هذه المرة، ولا يعترض.

ـ ولماذا تحبينه؟

ـ لأنه رجل لبناني مخلص. لكن مشكلته هي مشكلة أي سياسي ماروني في البلد.

ـ وما هي؟

ـ قصر النظر، والغرام الكبير بحصار الصغار والمنافقين لهم.

حاول فادي بعد ذلك، أن يجعل أمه تتكلم أكثر، لكنها لاذت بالصمت. كانت حزينة لدرجة انها لم تتناول الفطور.

كما حاول تذكّر أي عبارة قالتها من قبل، تدّل على محبتها للعماد، ولم يجد. كذلك لم يجد ولا عبارة في حياتها تدلّ على اهتمامها بالسياسة. وبدا واضحاً انها لن تضيف إلى ما قالته أي كلمة أخرى.

وبينما كان فادي يستمع إلى الأخبار عند الظهر، خُيل إليه أن داني يسير في الردهة. ولم يصدق ما يراه، وخرج إلى الرُدهة ووجد داني فعلاً يسير وكأنه يبحث عنه، لأنه لم يصعد إلى الغرفة في المأوى من قبل.

ـ داني؟! الشيطان نفسه غير قادر على عبور المعابر اليوم؟ كيف أتيت؟

ـ لأنني مت، وهو لم يمت بعد!
ـ سيكون اسمك عندي منذ اليوم داني المَغْبر وليس داني عوّاد.
ـ تسمية أنيقة لواقع تعيس.
ـ هل تعرف ان مجيئك اليوم مغامرة بطولية؟
ـ أنا ببساطة لا يمكن أن أُسجن في منزلي.

ظل فادي ملازماً المأوى لثلاثة أيام، بعد خروج العماد من بعبدا، لأن الأجواء الأمنية في الخارج كانت خطرة وغير مستقرة إطلاقاً. عمت الفوضى والقتل والسرقات، وكان الأبرز إعلامياً هو اغتيال داني شمعون، أحد الوجوه المارونية البارزة، بعد أحد عشر يوماً من الهجوم على العماد، في عملية غامضة.

زار فادي وتيرا، بعد استتباب الأمن نسبياً، منى في منزلها. ولاحظا أنها في حالة حزن وتسليم بما حدث، ما يعني انها عرفت ما حدث لها من ضرر. وتجنبنا فتح أي حديث يزعجها.

ـ سيسافر فادي قريباً. قالت تيرا لمنى.
ـ تفعل حسناً بالسفر، على الرغم من صعوبته نسبة إلى ظروفك. قالت منى لفادي.
ـ ما تقولينه صحيح تماماً.
ـ وماذا تنوي أن تفعل مستقبلاً؟ (مشيرة إلى علاقته بتيرا بشكل غير مباشر).

ـ كل ما أحسّه هو التفاؤل، على الرغم من جهلي فعلاً بالتفاصيل. (وقد أجاب وذهنه خالٍ تماماً من تيرا).

ـ وأنت يا تيرا؟ سألتها مني.

ـ أتمنى له النجاح. فادي إنسان ممتاز.

ـ ألاحظ انكما تتحدثان بطريقة غريبة. ألاّ تريان ان الدنيا لا تساوي أي شيء.

همّ فادي بالرد، لكنه تذكر أموراً وسوء تفاهم حدثت في الماضي آلمته كثيراً. كرامته والقرار بحفظها حتى لو كلّفه ذلك حبه الكبير. ويبدو أن تيرا قرأت غموض صمته، لأنها أجابت بالإخلاص نفسه، الذي اعتقد فادي انه يتعامل به معها منذ بضعة شهور:

ـ فادي لا يحب المراهنة على شيء لا يراه.

والتقطت منى إشارة سوء التفاهم الذي لا يزال موجوداً بينهما، وبحسن إدراك أدارت دفة الحديث نحو شيء من الهزل:

ـ هل تعلم يا فادي ماذا قلت لتيرا عندما سألتني رأيي كفتاة فيك؟

ـ لا أعلم.

ـ هل يمكنك أن تتخيل؟

ـ ولا أتخيل.

ـ قلت: إذا رأيته في مصعد لمدة لحظات، سأقع في حبه.

ـ لم أتوقع منكِ هذا المديح مطلقاً.
ـ يا فادي. إنني أتمنى النجاح لك من قلبي.
ـ من المؤكد اننا سنلتقي قبل السفر.

استمرت الزيارة نحو ساعة، وغادر فادي وتيرا بيت منى. وأثناء عودتهما بالسيارة باتجاه منزل تيرا، سألته وهي تنظر إلى الطريق:

ـ لماذا لم تسألني حتى الآن عما حدث بيني وبين يوسف؟

وبدلاً من أن يجيبها، اتجه بسيارته إلى يمين الطريق وأوقفها، وبهدوء غريب سألها:

ـ أسألك بصفتي ماذا؟

نظرت تيرا إلى عينيه مباشرة، وللمرة الثانية تجد تلك الهالة الحديدية، ما أكد لها أن شيئاً ما قد مات فيه، لكنها لم تستطع إدراكه.

ـ بصفتك صديقي.
ـ صديقك في كل الأمور، إلا هذا الأمر.
ـ لماذا؟
ـ من الأفضل ألاّ تعرفي.
ـ تخاف أن تقول؟
ـ أخاف أن تسمعي.
ـ أنت تعلم انني لا أخاف.
ـ قبل أن نصبح صديقين، تخيلتُ ان تكوني مع رجل

آخر تمارسين الحب، وآلمني ذلك كثيراً، لدرجة أنني اعتبرت سكرات الموت أخف وطأة منه. لذلك قررت التخلص من هذا الشعور ومنكِ للأبد.

التقطت تيرا بدهاء الأنثى المعنى المبطن لما قاله فادي، ورأت أن تحترم مشاعره. مشاعر الرجل الذي أمامها.

ـ إنني أعتذر فعلاً.

قالت تيرا، ثم اتجهت بنظرها إلى الأمام، وأدار فادي محرك سيارته مرة أخرى وانطلق.

وعندما وصلت السيارة أمام منزلها قالت له:

ـ أنت حقيقة صديقي المهم. يبدو أن الصداقة أعظم من الحب، لكن الإنسان بحاجة إلى وقت ليفهم.

ـ لأن الحب له نهاية، أما الصداقة فلا.

***

انتقلت أم فادي إلى البيت الجديد الذي استأجره لها ابنها، وعلى الرغم من فرحتها الظاهرة بالمنزل المطل على مرفأ بيروت، قالت له بعد أن نقلت إليه كامل أغراضها ومفروشاتها القليلة:

ـ سأعيش وحدي هنا بعد اسبوعين

ـ موقتاً. وبعد ذلك ستعيشين معي في ألمانيا.

ـ هل تظن ذلك.

ـ ستعيشين حتى المائة عام.. لا ضغط.. لا سكري... لا كولسترول. لماذا التشاؤم؟

ـ ليس تشاؤماً. إنه شك..
ـ في انني سأعود واصحبك معي؟
ـ لا أعلم.
ـ إذا كنتِ بحاجة لغرض آخر، أخبريني لأشتريه.
ـ انني بحاجة فعلاً لأعرف ماذا حدث لك؟
ـ لا أفهم.
ـ بدأت علامات الغنى تظهر عليك، وأصبحت تتحدث مثل الأغنياء.
ـ منذ ثلاثة أسابيع اكتشفت انك سياسية مهمة، واليوم أكتشف انكِ تجيدين التبصير. ماذا حدث لك أنتِ؟!
ـ يا صبي دعك من المراوغة، لأنني أتكلم بجدية.
ـ يبدو أنني أتقمص دوري الأوروبي جيداً. هذا كل ما في الأمر.
ـ أنت تكذب، لأنك تنام بشكل غير مريح ليلاً.
ـ ولماذا أكذب؟
ـ المسافة القريبة بيني وبينك ما فائدتها، إذا لم تقل لي الصراحة.
ـ أتكلم بصراحة معك دائماً.
ـ حتى بخصوص تيرا؟
ـ حتى بخصوص تيرا.

كان قرارا فادي نهائيين، بشأن عدم إخبار أمه بموضوع النقود المسروقة ونسيان تيرا. وساعدته الظروف على وضع

النقود في خزانة جديدة والاطمئنان عليها. واتخذ كل الاحتياطات النفسية الممكنة، بالنسبة إلى تيرا، حتى لا يكون هناك ثغرة، ينفذ منها أي ضعف.

كان القراران متناقضين تماماً. أحدهما لكي لا يخسر ثقة أمه ومحبتها. والثاني يخسر فيه حبه. لكن الجامع بين القرارين كان الخشية من أن تخدش كرامته أمام أم ربّته على السير في الطريق المستقيمة، وحبيبة لم يعجبها إخلاصه معها. توقف عقله عند هذه النقطة ولم يستطع تخطيها.

وللمرة الثالثة يهاجمه الكابوس الفظيع، في ثاني ليلة ينام فيها بالمنزل الجديد، وبالسيناريو نفسه: الظلمة الحالكة... اقتحامه بواسطة شخص لا يراه.. انتهاء الكابوس بعد التخلص من المعتدي بصعوبة بالغة.

ولاحظ فادي، أثناء انتظاره لزيارة أصدقائه، ان احساس الإرهاق بدأ يزداد مع هجوم الكابوس في المرة الثالثة، وكأنه في هذه الثواني أو الدقائق يؤدي مجهوداً جسمانياً شاقاً. إضافة إلى ازدياد الشعور بالخجل من مسألة لم يمارسها في حياته، ولا يود ممارستها مستقبلاً. ولم يشأ أن يبوح بهذا الأمر لأي إنسان، لأن البشر عادة يحلمون بما يشتهون!

الحل الذي وصل إليه فادي، هو قناعته بأن التغيير الذي سيحدث في حياته، سيغيّر كل براجه العقلية، تماماً كما يحدث عند تغيير البرنامج في الكمبيوتر.

ووصل ريمون وأبوه وداني مهنئين بالمنزل الجديد في مار

مخايل بالأشرفية. ولم تكن الزيارة الأولى لداني، لأنه هو الذي عرّف فادي إلى الشقة وساعده في نقل الأغراض. وأبدى أبو ريمون انشراحه من موقع المنزل، بعد خروجه إلى الشرفة والوقوف فيها.

كانت المرة الأولى التي يرى أبو ريمون فيها أم فادي. والطريف أنه أبدى الملاحظة نفسها التي قالتها تيرا، عن اختلاف الشكل والملامح بين فادي وأمه.

وقالت أمه ممازحة: هذا يعني ان محبته كبيرة عندكم.

ـ ويعني أيضاً أنك كنتِ تحبي أباه أكثر. قال أبو ريمون.

ـ معك حق في ما قلته. كان رجلاً وسيماً.

ـ ولماذا لم تأتيا بأخ أو أخت لفادي.

ـ تُوفي أبوه وأنا حامل به.

ـ أعتذر عن سؤالي. هذه أول مرة أعرف.

جلس الأصدقاء طوال بعد الظهر يتسلون بالحديث في شؤون كثيرة، ويبدون ملاحظاتهم حول الوضع الأمني الهادىء، الذي لم يعرفه البلد منذ فترة طويلة.

ـ أصبحنا ننام في غرفنا بدلاً من الملاجىء.

ـ كان صوت القذائف مرعباً فعلاً.

ـ إلى متى ستدوم هذه الحالة؟

وأخبرهم فادي بموعد سفره بعد أسبوعين، وبادر أبو ريمون ودعاه مع أمه، ليشرب الجميع نخب نجاح آماله في

ألمانيا، في مساء السبت الواقع قبل سفره مباشرة.

في السيارة المنطلقة إلى المطار، كان داني مع فادي وأمه. وقد اتفق الصديقان على أن يُعيد داني أم فادي بعد الوصول إلى المطار إلى منزلها، ووصلت السيارة وأوقفها فادي في موقف المطار. وتوجه الثلاثة إلى مدخل المسافرين، وداني يدفع عربة الحقائب بمساعدة فادي. وهناك استفرد فادي بصديقه وقال والدموع في عينيه:

ـ إنسَ بروتوكول الوداع واسمعني جيداً.

ـ إنني أسمعك.

ـ دفتر السيارة موجود في التابلو، وهو باسمك.

ـ كيف فعلت ذلك؟

ـ هل نسيت الفوضى في البلد؟ السيارة أصبحت ملكك، وقلت لأمي إنك اشتريتها.

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ من دون تعليق. سأراسل أمي كما تعلم، وأي خبر أريد إرساله بسرعة، سيكون بواسطتك هاتفياً، لأننا لا نملك واحداً.

ـ (وهو متأثر) على الرحب والسعة.

ـ انطلق الآن قبل حلول الظلام. أمي لا تقوى على الانتظار.

ـ ما هذه الحياة العجيبة؟

ـ أول مرة أسمعك تسأل بهذه الطريقة.

ـ يفيض الإنسان بما في قلبه أحياناً.
ـ أين ثباتك أيام المدافع؟
ـ هل تظن اننا سنلتقي؟
ـ جرّب أن تقدم طلب هجرة إلى ألمانيا. إنه أسهل من أميركا أو كندا.
ـ سأفعل وأخبرك بالتفاصيل.
ـ هجرة موقتة، لأننا لا يمكننا الاستغناء عن بلدنا.
ـ حتى تتبلور الأجواء هنا.
ـ أول مرة أراك منقاداً.
ـ إنني أحبك فعلاً.
ـ كن عملياً مثلي. تناسَ عواطفك أثناء صنع مستقبلك.

تعانق الصديقان. وعانق فادي أمه وأكد لها ان كل ما قاله سينفذه. واتجه فادي إلى مكان المسافرين.

وقف داني وأم فادي لحظات، إلى أن اختفى فادي خلف الزجاج. وغادرا المطار. أوصل داني أم فادي إلى منزلها، ثم اتجه إلى منزله وهو في حالة انقباض شديد، وذكريات، أيامهما الجميلة تتراقص أمام عينيه المبللتين بالدموع.

وقبل أن يغادر السيارة، فتح داني «التابلو» ليأخذ الدفتر الجديد المسجل باسمه، كما قال فادي، لكنه فوجىء بظرف، فتحه فوجد فيه الدفتر وكمية من المال. وعندما صعد إلى

منزله، وجد أن فادي قد ترك له خمسة آلاف دولار، وورقة صغيرة مكتوب عليها «لأنك أخي».

* * *

بدت الأمور إلى فادي كأنها لا تصدّق، عندما أخذت الطائرة تتحرك باتجاه المدرج، ثم تندفع بقوة إلى أن ارتفعت في الهواء. وبدأ يستوعب الأمور وكأنها حدثت مع شخص غيره أولاً، وأدرك بعد ذلك بانتباه صافٍ، إلى أن كل ما حدث، كان هو محوره.

تيرا واللقاء الأخير الذي ساده الوجوم، وقطعت هي الصمت مراراً بعبارات من وحي المناسبة، فيها حرص على عدم هدم شيء ما، شيء حميم مشترك بينهما.

تمسّك كل منهما تمسكاً عنيداً بموقفه.. حياتهما وذكرياتهما معاً في قلب الخطر... اللحظة القدرية المزدوجة التي أطاحت بأحلامه، وجاءت بشخص آخر يزيد من تعقيد الأمور السمجة التي حدثت.

ـ هل أنت مقتنع بما تفعل؟ سألته تيرا.

ـ تماماً. حتى لا أقع في أي موقف سخيف مدمر مرة أخرى.

ـ هل تنوي الهجرة بشكل دائم؟

ـ على الأقل، حتى تتوضح الصورة النهائية للبلد.

ـ وإذا طالت المدة؟

ـ تصنع الظروف أحياناً أقدار الناس.

ـ سأرد على خطاباتك، مهما كانت ظروفي، وسأعْلِمكَ بكل جديد.

ـ ربحت صداقة لا يمكن أن أنساها.

ـ ولا أنا.

الطائرة تنساب كغيمة مسرعة في الفضاء، وأفكار فادي تقفز من الذكريات إلى صورة أخرى، خصوصاً الصور الأخيرة، التي كانت تلحّ فعلاً في تواترها.

اللقاء الأخير بين الأصدقاء في منزل أبي ريمون، الذي لم تحضره أمه المدعوة بسبب توعك صحي، حيث كان داني نجم الجلسة ـ كعادته ـ لأنه كسر الوجوم وخرق الأحاديث المقولبة في هكذا مناسبات.

خالف داني المَعبْر كل الآراء، واعتبر أن المناسبة سعيدة، على الرغم من شكليات الفراق.

ـ لماذا سيسافر فادي؟ سأل داني الحاضرين.

ـ ليصنع مستقبلاً أفضل. أجاب ريمون.

ـ ولماذا نودعه (بوجه يبتسم) ونحن عابسون؟

ـ هل من الضروري صنع المستقبل في الخارج؟ سأل ريمون.

ـ ظروف يا دكتور (وكان أول مرة يقول اللقب) المستقبل يُصنع أحياناً في غرفة العمليات عندكم.

ـ أتكلم عن المستقبل وليس الصحة يا داني. لا تهرب. قال ريمون.

ـ في أحيانٍ كثيرة، تكون صحة الإنسان هي مصيره ومستقبله. قال أبو ريمون.

ـ مهما كانت التفاسير. يبقى أمر واحد ومهم جداً هو أن فادي سيفارقنا. قال ريمون.

ـ ما نراه هو ظواهر لحياة لا نعرفها. قال داني مستفزاً أبا ريمون.

ـ سواء كنا ظواهر أو وقائع. أنتم في ذاكرتي ولن تفارقوني، وأعتقد أن الأمر نفسه عندكم. قال فادي.

ابتسم فادي وهو جالس في الطائرة، من سخرية داني من تناقضات الحياة، ليستمر فيها، حسب ما قاله لفادي ذات مساءٍ في بيروت.

ـ ولماذا تتعاطى الكحوليات بكثرة، وأنت على يقين من ان ما تراه هو وهم وصور متغيرة؟

ـ مسكِّن للوجع فقط، ولفترة قصيرة.

ـ أرجو ألاّ تطول.

ـ لن تطول. لأنني أكره المشروب.

أحس فادي بالأمان، وهو على ارتفاع ثلاثين ألف قدم. خفيف الوزن غير مثقل بأحمال المفاجآت الشرسة، وعلاقات التوتر المزمنة بين الإنسان والآخر، والإنسان والأحداث، والكفاح اليومي لأبسط أمور الحياة المدينية: مثل الكهرباء، والماء، والهاتف، في بلدٍ مرهقٍ بخطايا أبنائه والغرباء.

ـ شعور طيب أن يخسرهم الإنسان في مستقبله فقط.

همس فادي لنفسه، ثم نظر من نافذة الطائرة، ورأى أضواء أوروبا تحته، ما يعني أن الطائرة قد غادرت البحر المتوسط.

حاول أن يغفو، ولم يستطع. فبدأ حديثاً مع جاره في الطائرة، الذي لم ينتبه إليه، سوى بعد الخروج من أفكاره.

***

كاد فادي يسأل سائق التاكسي، في الطريق إلى هانوڤر، عن الأماكن التي فيها حواجز أمنية ليتجنبها! ثم تذكر أن لا حواجز في ألمانيا. وعلى الرغم من المجهول الذي كان يتقدم نحوه، كان يحس براحة داخلية. ولعل النقود التي في حوزته في لبنان وألمانيا، هي التي جعلته أقوى في مواجهة مشاعر الإثارة المصاحبة لأي إنسان يقدم على مثل هذا التغيير.

استقر في أحد الفنادق كخطوة أولى، ومنه إتصل مساء اليوم التالي بداني ليطمئن الأخير بدوره أمه على الوصول.

ـ توقعت أن تكون خارج المنزل هذه الساعة.

ـ حمداً لله على سلامتك. من أين تتكلم؟

ـ من الفندق الذي أقيم فيه.

ـ وكم الساعة الآن عندك؟

ـ أقل من توقيت بيروت بساعة.

ـ إنني أنتظر تلفونك منذ أربع ساعات.

ـ وأنا لا أصدق أنني أتكلم معك الآن من ألمانيا.

ـ من حسن حظك.
ـ بلّغ أمي بوصولي.
ـ سأبلغها بعد قليل. على فكرة، لماذا فعلت ما فعلته؟
ـ الأخ يجب أن يساعد أخاه.
ـ أنت بحاجة إلى كل قرش الآن.
ـ معي أكثر من قرش كما تعلم.
ـ لقد تأثرت فعلاً من هذه المبادرة الكريمة.
ـ انتبه إلى نفسك، ولا تنسَ ما اتفقنا عليه.
ـ بدأت تحضير مستنداتي من اليوم.
ـ بلّغ سلامي إلى ريمون وأبيه.
ـ اتفقنا. كيف ستكون مواعيد اتصالاتك.
ـ توقع مني اتصالاً في الأول والخامس عشر من كل شهر.
ـ في الموعد نفسه؟
ـ نعم.
ـ إلى اللقاء. وانتبه إلى نفسك جيداً.
ـ إلى اللقاء يا داني.

التحق فادي بمعهد متخصص في الكمبيوتر، ليقف على أحدث التقنيات التي لا يعرفها. ومن جهة أخرى، ليتعرف من خلاله إلى أناس ربما يساعدونه في إيجاد وظيفة. وبعد ثلاثة أسابيع من التحاقه بالمعهد، بدأت الأمور تتوضح أكثر إليه.

ساعده أحد الأشخاص في استئجار شقة صغيرة. وبدأ يسمع ويفهم كيفية تحرك الغرباء أمثاله، في هكذا بلد ضخم. وبدأ الأمل يلوح له مع معرفته التي تزداد يومياً، وتوقع أن يجد وظيفة في بدايات العام ١٩٩١، لأن العنصر النفسي في البلد هو الاستعداد للأعياد، الميلاد ورأس السنة الجديدة. وبداهة، لا توظّف الشركات في الأسابيع الأخيرة من السنة.

اقتنع فادي بثقة وحدس في العالم الجديد، وغاص حتى أعماقه، وبفرح كبير، في الاستعداد للأعياد.

لم يستطع مقاومة إحساس شراء هدايا تخص الأطفال، على الرغم من أنه لم يعد طفلاً، إضافة إلى عدم وجود أطفال لديه. لذلك قرر أن يعيش إحساس طفل فرح بقدوم الأعياد، وشعشعت شجرة الميلاد في شقته الصغيرة بالنور والألعاب. وقرر قبل النوم أن يذهب إلى إحدى الكنائس ليلة عيد الميلاد، ليرى كيف يحتفل الألمان بذلك اليوم، ويشاركهم فيه بأنوار الفرح الموجودة في قلبه.

قام من نومه فجأة قبل الفجر، بعدما دهمه الكابوس نفسه، منزعجاً إلى أقصى حدود الإزعاج، شاعراً ان جسده قد انسحق فعلاً، أثناء عودة وعيه إلى الحياة، من الدهليز المظلم السحيق الذي يجد نفسه فيه.

ولأول مرة ينتبه إلى الطريقة الجديدة، التي خرج بها من الدهليز. إذ انه نادى أثناء كابوسه العنيف وبأقصى صوته على

يسوع المسيح. وتساءل في ما بينه وبين نفسه: هل تم ذلك بفعل صلوات الكاهن، والايحاءات التي تلقاها أثناء تلاوة الصلوات؟ أم أن الأمر يعود إلى تفكيره بعيد الميلاد؟

وبعد مرور بضع دقائق على الكابوس، انتبه مرة أخرى إلى أنه في المرات السابقة، يحس انه يقع داخل الظلمة مع من يقتحمه، ويتدحرج إلى أسفل حتى يخرج من الدهليز.

أما هذه المرة فقد أحس انه بمجرد أن نادى يسوع بصوت مذهل، أثناء الوقوع في الظلمة مع من يقتحمه، استردّ وعيه بسرعة كرصاصة انطلقت من فوّهة بندقية، وخرج كغريق وصل من قاع البحر إلى مستوى سطح المياه، مقطوع الأنفاس.

تسمّر مفكراً في سريره، في ذلك الكابوس المذلّ لكرامته، على الأقل سراً أمام نفسه. نظر إلى ساعته التي إلى جواره، ثم قام وذهب إلى المطبخ ليعد شراباً ساخناً، لأنه لم يقدر على العودة إلى النوم مرة أخرى. وأثناء إعداد الشراب، هداه تفكيره إلى شراء آلة تسجيل من الآلات التي تستخدمها الصحف، وتسجّل الشريط العادي في ١٠ ساعات، ليديرها كل ليلة قبل النوم، ويستمع بعد ذلك إلى ما يحدث أثناء نومه من أصوات أو كلام.

وقرر فادي أن يتصل بتيرا، عند السابعة صباحاً بتوقيت بيروت، أثناء احتساء النسكافيه.

تداعت أفكاره وذكرياته أثناء وحدته بعد هجوم الكابوس،

وصمم على الاتصال بها، بعدما كانت المرات السابقة تأرجحاً ما بين الاتصال وتأجيله.

ـ حتى يكون لديَّ ما أقوله لها.

رنّ الهاتف في منزل تيرا، رنّة مكالمة خارجية، فجمدت وهي تنظف أسنانها لمدة ثوانٍ، ثم غسلت فمها بسرعة، ونسيت الفرشاة بيدها اليسرى، ورفعت السماعة وقلبها يدق بشدة.

ـ ألو... صباح الخير.. منزل عائلة ضو؟

ـ صباح الخير يا فادي. كيف أحوالك؟

ـ بخير. وأنت؟

وارتفع صوت أم تيرا متسائلة من غرفتها: لمن المكالمة الخارجية؟

ـ لي

أجابت تيرا بصوت مرتفع، ثم عادت إلى فادي بنبرتها الطبيعية.

ـ أمي كانت تسأل عن المكالمة الخارجية. لماذا تأخر تلفونك هكذا؟

ـ حتى يكون لديَّ ما أقوله.

ـ وما هو جديدك؟

ـ لا شيء مؤكداً حتى الآن. التحقت بمعهد للكمبيوتر، وأظن أنني سأبدأ العمل أوائل العام القادم.

- وأين تعيش؟
- استأجرت شقة صغيرة وجميلة جداً فعلاً.
- إذن أنت مرتاح نفسياً. هل البلد جميل؟
- رائع. اعتدت على وجود كهرباء دائماً ومياه وهدوء، وعدم وجود حواجز في الطرق. هل تتخيلين انني أتحدث معك من بيتي؟ عندي تلفون.
- الأوضاع عندنا كما تعرفها.
- وأنتِ. ما هو جديدكِ؟
- لا جديد مطلقاً. بضعة خطابات تافهة. سأنال ترقية في عملي.
- مبروك.
- أين ستقضين العيد؟
- لا يمكن أن تتخيلي كيف تحتفل أوروبا بهذا العيد. كل شهر كانون الأول تقريباً عيد. إضاءة هائلة.. شراء.. زينة.. عالم مختلف.
- وأنت؟
- عيد الميلاد في الكنيسة. أما رأس السنة فلا أعرف.
- أين ستقضين العيد؟
- سهرة رأس السنة سأقضيها في المنزل مع أهلي وصديقاتي.
- بالمناسبة. كيف حال منى؟
- جيدة.

ـ بلّغيها سلامي، وتمنياتي بالأعياد.
ـ سأبلّغها. وكل عيد وأنت بخير.
ـ وأنتِ بخير. إلى اللقاء.
ـ لقد أسعدني تلفونك.
ـ وأنا أيضاً. إلى اللقاء.

أخذ فادي نفساً عميقاً بعد انتهاء المكالمة، وتوجه إلى المطبخ ليعدّ النسكافيه مرّة ثانية.

صور كثيرة من الذاكرة ملأت ذهنه عن تيرا. لكنها هذه المرة كانت بعيدة عن ضغوط بيروت، وأمور المحبين الصغيرة التي يعتقدون أنها تمسّ كرامتهم.

نشوة وحنين جعلاه يتمنى أن يشم شعرها، ورائحة عطرها. أيام الذهاب إلى البحر. الظروف غير الطبيعية التي يمر بها الناس في لبنان، التي وضعت السم في كأس حبهما.

وتذكر عبارتها «لا جديد مطلقاً. بضعة خطابات تافهة». وسأل نفسه عما إذا كانت تيرا تنتظر شيئاً جديداً.

هل ينتظر إشارة منها بفك الارتباط البروتوكولي التافه الذي تتحدث عنه؟ أم ينساها كحبيبة بشكل نهائي؟

كان مستقبل فادي هو هدفه الحقيقي، وكان مستعداً أن يموت في سبيله. وكان كل ما هو خارج مستقبله، كصداعٍ يعالجه بمهدئات.

تحرك كثيراً في ألمانيا، واشترى سيارة ليتعرف أكثر إلى

البلد. تعمّد الاختلاط بأنماط مختلفة من الناس، ليمرّن لسانه وعقله استعداداً ليوم يبدأ عمله فيه.

كانت الثقة والأمل يملآن قلبه، وكان يحس أن عبء الاختناق الذي كان يرهقه في لبنان قد أُزيل. لكن الأمر الذي كان يحيّره هو مواصلة هجوم الكابوس عليه حتى بعد تغيير الأجواء المحتقنة من حوله.

وصل إلى محطة عقلية اعتقد أنها ستريحه، وكان يردد بينه وبين نفسه أن مسألة الكابوس ستزول تدريجياً، خصوصاً بعد استماعه إلى الشريط التسجيلي لما حدث أثناء الكابوس.

اطمأن إلى أن الأمر داخلي بحت، وانه يُصدر أصواتاً غير مفهومة أثناء الكابوس، حتى مناداة يسوع بصوت عالٍ لم تكن مسجلة.

ولم يمهل الحظ فادي طويلاً في ألمانيا، لأن مساعد مدير المعهد الذي يتعلم فيه مساءً، أخبره عن شركة يمكنه أن يجد فيها فرصة عمل.

ذهب فادي، وبعد المقابلة تم الاتفاق على أن يعمل بدءاً من اليوم السابع في السنة الجديدة، لأن عطلة إجازة نهاية العام ستبدأ من منتصف الأسبوع السابق للأعياد حتى اليوم الثالث من العام الجديد.

هكذا نام فادي لياليه قبل رأس السنة، وهو مطمئن إلى الالتحاق بعمل براتب معقول لشخص أجنبي، من دون خبرة عمل «ألمانية».

بعد ظهر اليوم الأخير من السنة، اتصل فادي بداني وكانت أم فادي عنده، بناء على اتفاق مسبق بينهما، أثناء مكالمة منتصف الشهر، وردت الأم مباشرة.

ـ ألو. فادي؟

ـ نعم يا أمي. اشتقت لك.

ـ وأنا أيضاً. ما هي أخبارك؟

ـ جيدة جداً. سأبدأ العمل في أول السنة.

ـ مبروك يا ابني. الله يرد عنك الحسد. لم أتوقع أن تتحرك بهذه السرعة.

ـ تحركت إلى الأفضل بسبب دعواتك. كيف صحتك؟

ـ ممتازة.

ـ إن شاء الله مبسوطة في المنزل الجديد؟

ـ أكثر مما تتصور. ريمون وأبوه زاراني مرتين. وداني يأتي مرتين في الأسبوع.

ـ سأحوّل مبلغاً من المال كل شهرين، إلى أن تستقر ظروفي، وتأتين إلى هنا.

ـ إنني أنتظر هذا اليوم فعلاً.

ـ وأنا أيضاً. كل عيد وأنت بخير.

ـ والعيد القادم سنكون سوياً هنا.

ـ إذا أراد الله.

ـ دعيني أكلم داني.

ـ ألو. كيف حالك يا صديقي؟

- بخير. وأنت؟
- اشتقت لك كثيراً.
- وأنا أيضاً. ما هي أخبارك؟
- يبدو أن الحرب قد انتهت فعلاً في البلد.
- هل تشعرون بذلك فعلاً؟
- هل تذكر أن أبا ريمون قال هذا الكلام منذ ستة أشهر؟
- آه. لقد تذكرت. قال هذا الكلام حرفياً، ويبدو أنه يبصّر جيداً. ماذا أفهم من حديثك؟
- إذا استمرت الأمور كما هي عليه، لن أفكر في السفر.
- هل بدأت أشغالك تتحسن؟
- أكيد، مع تحسّن الظروف الأمنية. لن تصدق إذا قلت لك إن السيارة وتوابعها كانت فألاً حسناً للغاية.
- إنني في غاية السعادة لسماع ذلك. أين ستسهر الليلة؟
- عند ريمون وأبيه. هل تذكر ليلة رأس السنة العام الماضي؟
- لا أنساها. بلّغ ريمون وأباه سلامي. ليت كان عندهم تلفون. وأنت تعلم صعوبة الاتصال بالمستشفى.

ـ أعلم. . . أعلم. هما أيضاً يرسلان إليك السلام.
ـ أنتم في بالي جميعاً الليلة. ولا لحظة ستغيبون.
ـ حتى تيرا؟
ـ (بعد ثوان) حتى تيرا. لماذا سألتني عنها؟
ـ إرفع كأسك عند الحادية عشرة، لأنه سيكون توقيت منتصف الليل في بيروت، لأننا سنشرب نخبك.
ـ (بصوت مبحوح) اتفقنا يا داني. إلى اللقاء، وكل عيد وأنت بخير.
ـ وانت أيضاً. بلِّغ سلامنا جميعاً إلى تيرا.
ـ O.K. باي داني.

غادر فادي منزله قبل منتصف الليل، وتوجّه إلى إحدى الحانات ليحتفل بقدوم السنةِ الجديدة. ولكنه على الرغم من صخب الناس حوله أحس بالوحدة.

تذكّر بلمحات سريعة، لكنها صامتة، آخر احتفال بليلة رأس السنة، وكادت الوحدة تقتله فعلاً، لكنه حاول الترفيه عن نفسه بالالمانيات الجميلات اللواتي يتراقصن. وسأل نفسه كيف انه لم يحاول البحث حتى عن صديقة.

نظر إلى ساعته وكانت بتوقيت الحادية عشرة قبل منتصف الليل في بيروت. وسأل أحد العاملين عن إمكانية الاتصال من الحانة إلى خارج ألمانيا.
ـ بالتأكيد يا سيدي.
ـ حتى بيروت؟

ـ بيروت؟! إذا كان حظك جيداً والخطوط تعمل هناك.

ـ أعتقد أنه جيد هذه الليلة.

قام وتوجه إلى مكان الهاتف، وطلب تيرا في منزلها.

ـ ألو. منزل عائلة ضو؟

ـ نعم. من تريد؟

ـ تيرا. من فضلك؟

وارتفع صوت حاملة التلفون تنادي تيرا في المنزل، وكان واضحاً أن صوت الموسيقى مرتفع جداً، لكنه انخفض في اللحظة التي بدأت تيرا الحديث فيها.

ـ ألو

ـ تيرا؟ أنا فادي.

ـ لم أسمع رنّة التلفون، لأن الصوت مرتفعاً هنا.

ـ من الذي ردّ؟ إنها ليست أمك.

ـ إحدى صديقاتي.

ـ كل سنة وأنت بخير.

ـ فاجأني تلفونك صراحة.

ـ لماذا؟

ـ لم أتوقعه.

ـ مفاجأة سارة؟

ـ جداً.

ـ ماذا تفعلين الليلة؟

ـ تخيّل تسع بنات يحتفلن بليلة رأس السنة. وأنت ماذا تفعل؟
ـ أنا في حانة بين حوالى مائة راقص وراقصة.
ـ وحدك؟
ـ لا.
ـ مع من؟
ـ معكِ.
ـ كيف؟
ـ بخيالي وصوتك الذي أسمعه.
ـ أوقفت مراسلاتي للأبد. هل أمك بخير؟
ـ تكلمت معها بعد ظهر اليوم. وداني يبلّغك سلامه.
ـ أشكرك وأشكره. ما أخبار عملك؟
ـ سأبدأ عملي أول أسبوع من العام الجديد.
ـ مفاجأة حلوة ثانية.
ـ هل منى معكم؟
ـ أكيد
وارتفع صوت تيرا
ـ منى... منى.. إنه فادي.
ـ ألو. فادي. كيف أحوالك؟
ـ جيدة.
ـ كنا نتمنى أن تكون معنا هنا.
ـ ظروف. وأنت كيف أحوالك؟

ـ أحاول أن أكون سعيدة.
ـ إجعل كل ما يحدث خارج ذاتك.
ـ مثلما فعلت أنت؟
ـ يمكنك أن تقولي ذلك: المهم... كل عيد وأنت بخير.
ـ وأنت أيضاً. هل تريد التكلم مع تيرا.
ـ تكلمت. بلّغيها سلامي.
ـ باي فادي. هابي نيو يير.

عاد فادي إلى منزله قبل الفجر مخموراً مفكك الأوصال، تتوالى صور الفتيات والنساء في مخيلته، خصوصاً تلك التي سألته إن كان يبحث عن صحبة لليلة، لكن كمية الخمر التي شربها حتى سؤالها، لم تسمح له سوى بأن يقول: ربما الأسبوع القادم.

ووصل بالكاد إلى سريره، ونام نوماً عميقاً بثيابه، لم يستيقظ منه إلاّ بعد ظهر أول يوم من السنة الجديدة. ولم يدرِ لماذا استيقظ وهو يبحث عن أمه بعينيه وأذنيه، لكنه سرعان ما أدرك انه في هانوڤر.

***

شكّل العمل دائرة جديدة لحياة فادي وسلوكه، وغيّر مساره السابق سواء في بيروت أو هانوڤر. تبدّل جدول نهاره تماماً؛ موظف حتى الثالثة بعد الظهر، وتلميذ في فترة المساء. مشغول دائماً حتى بعد دوامه في المعهد، بمتابعة ما

هو جديد، أو تحضير أكله وثيابه، لأنه اعتاد على ذلك الأمر في لبنان، ولم يستطع اكتساب عادة الذهاب إلى مطعم، وإرسال ملابسه إلى مصبغة.

وهداه الاحتكاك المثمر المباشر بالمجتمع، إلى أنماط جديدة في التفكير وأسلوب التعامل، جعلته يرتاح كل يوم أكثر.

كان ينتهز فرصة الإجازة الأسبوعية، ليرتاح من كل شيء. وبدأت دائرته الجديدة تتوسع وتضم زملاء العمل الذين بدأوا يزورونه ويزورهم. وتوالت المراسلات، بعد استتباب الأمن في لبنان، مع أصدقائه، مما أضفى الراحة الداخلية على إحساسه.

تلاشى بمرور الوقت شعوران كانا يلازمانه في المرحلة الأولى من إقامته في ألمانيا. الأول هو تفكيره أحياناً بزيارة أصدقائه في لبنان بعد العمل، وانتباهه إلى انه لم يعد في لبنان بعد ذلك. كان هذا الشعور يزداد حدّة صباح الأحد، لدرجة أن عينيه كانتا تدمعان أحياناً، حين يتذكر المفارقة التي يقع فيها.

أما الشعور الثاني فكان تأثير الأماكن والشوارع الغريبة فيه. وتلاشى إحساس الغربة بالتآلف اليومي مع الأماكن، وتكرار السير في الشوارع، والشراء من المحلات، وبدأ يستمتع بالأماكن التي يزورها في الإجازات، بإحساس صاف لا يعكره سوى حنينه إلى الدائرة الدافئة التي عاش فيها.

وظل شعور الالتزام بأمه، وشلل أي مبادرة تجاه تيرا، هما

الأقرب إلى وجدانه، على الرغم من عزمه ان يعيش يومه بعيداً عن أي قالب من أحاسيس ماضية.

أما الأمر الذي كان يحيره فعلاً، فهو تكرار هجوم الكابوس نفسه، الذي لم يجد له أي تفسير، على الرغم من التفكير العميق ومساعدة جهاز التسجيل.

ثم استجد أمر آخر في الربيع، لم يجد له تفسيراً أيضاً. فقد أبدت أمه رغبة في البقاء في بيروت، أثناء حديث هاتفي لهما.

- ما زلت تنوي العودة يوماً ما، ما الداعي لأترك أنا؟
- ألم نتفق على ذلك قبل سفري؟
- نعم، لكن ما الداعي لكي أترك لبنان وهذه الشقة كذا سنة ثم أعود؟
- لكي تكوني قريبة مني. هل ذلك لا يكفي؟
- لا مستقبل لي في ألمانيا مثلك.
- هذا صحيح. وحضورك لكي اهتم بك.
- ما ترسله من نقود يكفيني.
- أمركِ غريب فعلاً. هل النقود هي كل شيء بالنسبة إليك؟
- اهتم بنفسك ومستقبلك. وكل الأمور ستسير حسناً.
- هل هذا هو رأيك الأخير.
- نعم، إلاّ إذا كان ما تحوّله من نقود لي يضايقك؟
- بالعكس. أموري تسير من جيد إلى أفضل.

أظهرت المراسلات مع الأصدقاء، والأخبار التي يسمعها عن لبنان، أن الحرب قد انتهت فعلاً في البلد، ما عدا جنوبه الواقع في تماس مع إسرائيل، التي تحتل جزءاً منه أيضاً.

وأمّن له هذا الوضع إطمئناناً على أمه، لكن الحيرة من رغبتها في المكوث في الوطن لم يكن لها أي تفسير عنده، سوى انها تعتقد أن السلام قريب مع إسرائيل، وأنها على وشك أن تعود إلى مرجعيون. وهو على يقين أنها لا يمكن أن تغادر بلدتها، إذا عادت إليها.

ـ هل يمكن أن تعود الآن وتضعني أمام الأمر الواقع؟

كاد هذا السؤال يفتح باب الوساوس على فادي، لكنه قرر تناسي كل شيء و«الأمور ستسير حسناً»، وتفرّغ فعلاً لحياته الجديدة التي لم يكن يعكرها سوى ذلك الكابوس السخيف. وقرر الذهاب إلى محلل نفساني مدركاً أنه لا يمكن حل ذلك اللغز. إضافة إلى ان الناس تذهب إليه في أوروبا، كما يذهبون إلى طبيب الأسنان.

بلغ عدد جلسات الاستماع في عيادة المحلل النفساني سبع جلسات. كان يستلقي فيها مسترخياً، ويروي عشوائياً للمحلل سنوات يختارها من حياته. وكان المحلل يسأله ويدوّن ملاحظاته. وكان أحياناً يطلب منه تذكر أمور معينة وتواريخ محددة.

وفي الجلسة الثامنة، لم يستلق ولم يروِ أي شيء، لأن

المحلل فضّل أن تكون جلسة مناقشة بينهما.

ـ لغتك ممتازة بالنسبة إلى أجنبي.

ـ يتوقع أي إنسان دائماً أن تكون لغتي الثانية هي الفرنسية.

ـ هذا صحيح بالنسبة إلى بلد فرنكوفوني. وأفكارك جداً متماسكة، هل تعرف لماذا؟

ـ أظن لأنني أعمل في مجال دقيق.

ـ لأنك تربيت في مدرسة داخلية، نظامها يشبه نظام الجندية. إضافة إلى كونك وحيداً مع أم، لا مجال للخطأ عندها. هل يزعجك الحديث الصريح.

ـ بالعكس. أتيت إليك لأعرف.

ـ ومنذ أيام هذه المدرسة الداخلية، تكون لديك إحساس بأنك أقل من الناس. كان زملاؤك يذهبون إلى بيوتهم وتظل أنت وبعضهم.

ـ نعم كنت دائماً وحيداً.

ـ وأردت في قرارة نفسك أن تكون طاهراً، لتتفوق على الناس، طاهراً حتى النهاية، على الرغم من صعوبة الأمر، خصوصاً في بلد عانى هكذا حرب قذرة.

ـ هذا صحيح.

ـ سمِ ما حدث في...

ـ بيتَ مري.

ـ سمِّه سرقة... اعتداء... سطواً. هذا ما كسر طهارتك أمام نفسك كسراً أنت غير راضٍ عنه. هل توافقني؟

ـ نعم. لدرجة انني تعمدت عدم النظر إلى النقود طويلاً، حتى هنا. وضعت المال الذي أتيت به في مصرف، لأتعامل بشيكات.. ورق.. مجرد ورق.

ـ أنت على بعد خطوة من الشفاء.

ـ ولماذا لم أعبرها حتى الآن؟

ـ فادي. هل ألفظ اسمك بشكل صحيح؟

ـ نعم.

ـ فادي. هل تعلم من الذي يضاجعك أثناء الكابوس؟

ـ حاولت رؤيته ولم أقدر. أوحيت لنفسي قبل النوم بمحاولة رؤيته ولم أقدر. سجلت ما يحدث على شريط تسجيل، ولم يفدني بشيء.

ـ لأنه أنت!

ـ (استنشق فادي أكبر كمية من الهواء ودفعها بقوة) أنا؟!

ـ نعم أنت. ببساطة أنت ولا أحد سواك.

ـ وكيف حدثت هذه التركيبة العجيبة؟

ـ فادي البريء الذي انكسرت براءته، هو الذي يضاجع فادي السارق.

ـ ولماذا لا يحاول قتله؟

ـ إنه يهين كرامته ولا يريد قتله. لا أحد ينتحر وهو نائم.

استرخى فادي على المقعد، ونظر إلى الطبيب وابتسم. وأكمل الطبيب حديثه.

ـ وهكذا... أنت لا ترى من يضاجعك

ـ ولماذا لا أرى نفسي وكأنني في المرآة، إذا كان تحليلك صحيحاً؟

ـ ببساطة وبعيداً عن تعقيدات علمية لا تفيدك أقول: فادي البريء هو فكرة. والفكرة لا تُرى. أنت تعاقب نفسك في الحلم، فإذا كان الموضوع مكشوفاً..

ـ لا يوجد عقاب.

ـ أصبحت مساعد محلل نفساني.

ـ وكيف سأشفى من هذا الكابوس؟

ـ بوسيلتين.

ـ وما هما؟

ـ أولاً المعرفة. أنت عرفت السبب، وهذا بداية الطريق.

ـ وما هي الطريق؟

ـ لا شك في انك مؤمن، لأنك ذهبت إلى كاهن أولاً، ثم استخدمت تقنية مناداة المسيح، بشكل لا شعوري للخروج من الكابوس.

ـ نعم، أنا مؤمن.

ـ الحياة بسيطة. والعلماء والشعراء يستخدمون مصطلحات فخمة جداً لتفسيرها. وسأبدأ بالفخامة لأصل إلى البساطة.

ضحك فادي ولم يعلّق لأنه كان في لهفة لسماع ما سينقذه.

ـ إذا قلت لك مصطلح «المشاركة الكونية»، هل تفهمه بلغتك تماماً؟

ـ نعم أفهمه.

ـ الإنسان يزرع، ويأكل ويعمل ويتزوج. الكائنات تأكل وتتكاثر. الفرد يشارك المجموعة أكان إنساناً أم حيواناً. هذه مشاركة كونية، أليس كذلك؟

ـ فهمت ما تقصده.

ـ هل تريد أن تعيش كصخرة؟

ـ لا أفهم قصدك.

ـ أقصد أنك أخرجت نفسك من أهم مشاركة كونية تساهم في صنع الحياة.

ـ تعني قصة...

ـ (مكملاً) حبك التي لم تنته. حسب رأيي وما سمعته منك.

ـ انني أنتظر.

ـ لا تنتظر. اهجم. عالم المرأة يختلف عن عالم الرجل.

ما قالته لك صديقتها، أكرره أنا. لكنك بشكل سخيف أدخلت إلى اللعبة ما اسميته كرامتك.

ـ ماذا كانت إذاً؟

ـ كانت العوز المالي... عدم وجود كلمة أنا موجود.. نقص في الخبرة في عالم المرأة. ما اسمها؟

ـ تيرا.

ـ تقوله بحنان. عد لأنها تنتظرك.

ـ هل تظن ذلك؟

ـ لنعد إلى المصطلحات الفخمة. يصاب الإنسان في حياته بجروح قد تعطبه إذا لم يشارك كونياً، في الأكل والصداقة والحب والحزن... إلخ. المشاركة تجعل هذه الإصابات ندوباً، لا تؤثر في آلية الجسم والنفس.

ساد صمت طويل نسبياً، قطعه الدكتور فرانك بقوله:

ـ هل ترى ما قلته مقنعاً؟

ـ بالتأكيد.

ـ حاول أن تبدأ خطوة.. بخطوة.

ـ هل ستهاجمني الكوابيس مرة أخرى؟

ـ على فترات متباعدة جداً، خلال بضعة شهور فقط.

ـ وستختفي؟

ـ بالمشاركة. أنا أكيد.

في أول إجازة أسبوعية جاءت بعد آخر لقاء مع الدكتور

فرانك، اتصل فادي بتيرا في منزلها صباحاً، وبعد المجاملات المعروفة سألها:

ـ هل من أخبار من أميركا؟

ـ قلت لك إنني أنهيت المراسلات السخيفة.

ـ ولماذا تقولين: لا جديد في حياتي.

ـ قد أعني عدم شراء فستان، وليس بالضرورة وجود عريس.

ـ هل الحياة بسيطة لهذه الدرجة؟

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء. إنني اتصل بك لأنني أحبك.

ـ وأنا أيضاً.

ـ أحبك جداً.

***

بدأ فادي عهداً جديداً في حياته، مفصل حركته كما قال له طبيبه المعالج: المشاركة.

شارك بعمق في العمل والصداقة والطعام والاندماج مع البلد الجديد وطبيعته المختلفة. كما شارك زملاءه في نزهاتهم. وكان حريصاً على الاتصال بتيرا مساء كل سبت. وكان كلاهما ينتظر ذلك الموعد، ويتحدثان في تفاصيل الأسبوع الذي مضى.

عاد إليه حنين قديم، وشهوة الحياة، وأحس بدفء فقده، لكن عقله كان عاجزاً عن صنع إخراج لما يريده.

وقرر هذه المرة ألاّ يترك الأيام تفعل ما تريده، أحس بأنه مرتبط بمصير جديد، عليه أن يعطيه الوقت والاهتمام، إضافة إلى وضع خطة له. وكانت هذه الخطة بؤرة تفكيره المستقبلي.

وصلت ذات صباح من تموز رسالة من ريمون، فيها فقرة مذهلة، أعاد فادي قراءتها مرات عدة ليستوعبها تماماً، ويحضّر رداً مناسباً عليها. وكانت الفقرة تقول:

«أخي فادي،

الصراحة والصدق كانا دائماً زهرتا صداقتنا. ويجب أن أتحدث معك بصراحة، لأن جزءاً مهما من حل هذه المسألة بيدك، كما قالت والدتك.

تعلم أنني أزورها مع أبي من وقت لآخر، كي لا تشعر أنها وحيدة. كذلك يزورها داني كثيراً. ومنذ أشهر عدة، فاتحني أبي بموضوع ظننته أولاً انه يمزح بقوله كعادته، ثم عرفت منه إنه جدّي تماماً في ما يقوله.

قال لي إنه يريد أن يتزوج السيدة أمك. وفكرتُ كثيراً في الأمر. وانتهيت إلى تحليل منطقي:

هذا العجوز يريد من يؤانسه ويحادثه، بدلاً من الجلوس وحده في المنزل ينتظر الموت. أما بعد زواجه، فهو على الأقل، سينتظر إمرأة ذهبت إلى السوق، وسيساعدها كعادته، وربما تطرده من المطبخ.

هذا العجوز يريد صوتاً آخر معه في المنزل. يريد حركة.

أكيد أن زواجهما لا غرام فيه، وعمرهما لا يسمح بمجرد التفكير في أولاد.

وإذا نظرت أنت إلى والدتك من الزاوية نفسها، ستجد ما أراه هنا وأقوله لك صحيحاً.

هل تقدِّر هذه المصادفة؟

أنت وأنا لن نكون وحيدين. ولن نكون صديقين. سنكون شقيقين.

لقد تكلمت مع والدتك (لأن العجوز يخجل. هل تصدق) فضحكت في البداية، وطلبت نسيان الموضوع. ولما كررته بناء على طلبه، قالت لي: إبني هو صاحب القرار.

عرس بسيط جداً لهذين العجوزين، سيعيشان من بعده لا ينتظر أي منهما المرض أو الموت وحيداً.

سيعيشان ما بقي لهما من عمر معاً. خصوصاً أنني أمكث الآن في المستشفى وقتاً أكثر بكثير من وقتي بالمنزل.

ما رأيك؟

تعجبني فكرة أن نكون شقيقين كثيراً».

وردّ فادي على رسالة ريمون، وكتب في ما يخص فقرة زواج والدته من أبيه:

«فكرتُ في كل ما كتبته يا ريمون، وتذكرتُ رغبة أبدتها أمي في نيسان الماضي أثناء حديث على التلفون، بأنها تريد البقاء في بيروت، ووجدت ان كلمة «مبروك» هي أنسب كلمة.

لقد كررتُ كلمتا المرض والموت كثيراً عند ذكرك هذين العجوزين. وأظن أن عملك كطبيب هو السبب، لأنهما يستحقان الحياة. وتحديداً الحياة سوياً.

لكن أنا لا يمكنني الحضور إلى لبنان، قبل إجازة عيد الميلاد ورأس السنة، لأن عملي الجديد ومسؤولياته لا تسمح لي. وعلى العاشقين الانتظار أربعة أشهر.

كنت يا ريمون أخي مجازاً.لكنك ستصبح شقيقي. وهذا يسعدني، خصوصاً انك ستستخدم إمكاناتك كلها في الحفاظ على عمر هذين العريسين.

إنني أتحدث مع أمي كل أسبوعين تلفونياً كما تعلم، وربما يسبق حديثي القادم هذا الرد بالبريد.

إلى اللقاء في فترة الأعياد في كفرشيما».

قرر العجوزان الزواج في كنيسة تابعة لمطرانية بيروت المارونية، بعيداً عن بلدة كفرشيما، ربما بسبب إحساسهما بالخجل من هذه الخطوة التي لم يقدم ولديهما عليها بعد، على الرغم من أن الشابين كانا في منتهى الفرح والتشجيع لهما.

وفي كنيسة صغيرة في فسّوح بالأشرفية، بعد ظهر السبت ٢١ كانون الأول ١٩٩١، تم زواجهما بهدوء شديد وحضور محدود، اقتصر على ولديهما وداني وتيرا ومنى.

ارتدت أم فادي فستاناً أزرق أتى به ابنها من ألمانيا لهذه المناسبة. وكان أبو ريمون مرتدياً بدلة سوداء ويضع فراشة حمراء. وكان الشاهدان داني وتيرا.

وبعد مراسم العرس الكنسيّة، دعا فادي الجميع إلى أحد المطاعم بالأشرفية، احتفالاً بهذه المناسبة.

ولأول مرة تنتبه تيرا إلى المعاني الجديدة في حبيبها. هذه المعاني التي لم تستطع قراءتها منذ أكثر من سنة.

لم تره عارياً أو حزيناً هذه المرة. رأته يقف ويجلس ورائحة الانطلاق والنقود تفوح منه. رائحة واضحة لا غموض فيها، تماماً مثلما كان عارياً وحزيناً.

تحدث الجميع وضحكوا كثيراً أثناء تناول الطعام. وكان داني صامتاً على غير عادته، فأبدل فادي مكانه مع ريمون، وجلس بقرب داني.

ـ أراك صامتاً على غير عادتك؟

ـ عندما أكون سعيداً، أتكلم قليلاً.

ـ ولماذا لا تشرب؟

ـ خففت المشروب كثيراً، لأن الحياة بعد الحرب أصبحت لا ترحم.

ـ وهل رحمتنا أثناءها؟

ـ كنا في كهوف غير مكلفة على الأقل.

ـ ماذا يحدث يا داني؟

ـ نتائج تافهة لحروب تعيسة.

ـ هل هذا ما تراه؟

ـ إنسَ ما أراه، ودعنا في ما هو أمامنا.

ـ تقصد هذا الزواج؟

ـ هذا رجل جبّار فعلاً. يبشر بفلسفة الظواهر، ويتعامل مع الحقائق.

انفجر فادي بالضحك بصوت عالٍ، لدرجة انه انحنى على مائدة الطعام، ولم يستطع أن يرفع رأسه.

ـ لا بد أن هذا الشيطان يتحدث عني. قال أبو ريمون.

ـ لماذا تتحدثان همساً؟ سألت منى.

ـ لقد أخبرني نكتة. قال فادي من خلال ضحكه.

ـ لم يتكلم عني؟ سأل أبو ريمون.

ـ أبداً يا عمي. قال فادي.

ـ تزوجنا اليوم لكي نفكر فيكم سوياً. لا نريد من أحد منكم أن يبقى عازباً. لديك ثلاث سنوات كحد أقصى. قال أبو ريمون.

ـ هل تظن ان ذلك سيتحقق؟ سأله داني.

ـ إفعل ولا تظن. أجابه أبو ريمون.

وبعد انتهاء الحفل الصغير، أمسك فادي بكلتا يديه يد أمه اليمنى وقال لها:

ـ مبروك. والله يطوّل عمرك.

وكرر الكلام نفسه لعمه نديم. ثم أخذ ريمون العريسين ليوصلهما إلى كفرشيما، على أن يعود إلى المستشفى، للعمل حتى ظهر اليوم التالي.

واستقل كل من داني ومنى سيارتيهما، وذهبا إلى

منزليهما. أما فادي فقد استقل سيارة تيرا لتوصله إلى منزله، قبل العودة إلى منزلها.

وفي الطريق، ساد الصمت بينهما على غير ما توقعت هي، لكنه كان صمتاً يشبه تجمع السحب، الآتي من جهة البحر ليمطر على اليابسة.

وكسرت هي الصمت.

ـ كيف ترى هذا الزواج؟

ـ رائع فعلاً. لقد تأثرت به كثيراً.

ـ وأنا أيضاً. هل تعلم انني أول مرة أكون شاهدة في عرس؟

ـ وهل كنتِ سعيدة؟

ـ جداً. بماذا كنت تفكر أثناء المراسم؟

ـ في أبي. خصوصاً انني لا أعرفه إلاّ من خلال بضع صور.

ـ أمرٌ محزنٌ فعلاً.

ـ لم يغب عني لحظة.

وتوغلت السحب أكثر إلى اليابسة، وأخذت تمطر بشدة فوقها، باندفاعٍ له صدى ورنين. صدى ذكريات آدم وحواء في بداية الخلقِ، ورنين نبض قلوبهما بين ضلوعهما.

ـ تيرا. أنتِ تعلمين ظروفي كلها، والأرض التي أقف عليها اليوم.

ـ إلى حد بيعد. وهي نقطة جيدة لصالحك.

ـ هل فعلاً تودين أن العيش معي؟
ـ وإذا قبلت. هل تعود إلى البلد؟
ـ صراحة. بدأت شيئاً مهماً هناك، ومن الصعوبة أن أتخلى عنه الآن.
ـ لماذا؟
ـ انني أتطور.. أحيا.. مشاكل هنا، ليست هناك.
ـ وهل مشاكلنا مهمة هنا إلى هذه الدرجة؟
ـ أنني أتطور كل ساعة هناك. مشاكلنا هنا تجعلنا نعيش فقط.
ـ فهمت.
ـ لكنك لم تجيبي عن سؤالي.
ـ...
ـ تيرا. هل تلاحظين اننا نتكلم بالتلفونات، ونرى بعضنا بعضاً في المطارات، ونلتقي في السيارات، ونأمل دائماً بالغد، وكأن يومنا كابوس نهرب منه؟
ـ نعم ألاحظ. نهرب منه كأنه ليس لنا.
ـ وما هو جوابك بعد كل ذلك؟
ـ هل ستعود يوماً؟
ـ ما أريده لن يتحقق سوى بعد خمس سنوات. سأحقق ذاتي، ويمكنني بعد ذلك زرعها في أي مكان وبنجاح. عالم كبير عجيب.
ـ وماذا بعد؟

ـ إذا تحسنت الأمور هنا بعد خمس سنوات سنعود سوياً. وإذا أحسسنا ان جذورنا أصبحت هناك لا نعود.

ـ كيف تحكم بهذه القسوة؟

ـ إذا أصبح لي جذور في بلد غريب بعد خمس سنوات أو ست، لماذا أعود إلى مكان اقتُلعت منه، وترابه لم يعد يستوعبني. تكفي الزيارة.

ـ عالم لا يرحم.

ثم نظرت إليه مباشرة، وعادت ببصرها إلى الطريق وهي تقول:

ـ أنا موافقة.